مدخل إلى الإمامة

السيد كمال الحيدري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وَجَعَلْنا مِنْهُم أئمةً يَهْدُون بأمرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بَايَتِنَا يُوقِنُونَ) السجدة: 24

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمّد وآله الطيبين الطاهرين .

تطلّ هذه الدراسة على موضوع الامامة من خلال التمييز بين منهجين ينطلق كلٌّ منهما من نظام فكري يختلف عن الآخر ومن ثمَّ يفرز كلّ واحد منهما مفهومه الخاص للامامة .

يتعامل المنهج الاول مع الامامة كمفهوم سياسي بحيث لا تزيد على الخلافة أو القيادة السياسية للامة ، ويجرّدها مِن كلّ ما عدا ذلك من أبعاد وجودية وعلمية ومعنوية .

أما المنهج الثاني فيتعاطى وإياها على أساس شامل يتخطى البعد السياسي من دون أن يلغيه ، ليلتقي مع أفقها القرآنيّ الرحيب من حيث أراد لها الاسلام أن تكون ظاهرة وجودية دائمة تدخل في نظام الهداية الخاص بحيث يحتاج إليها النوع الانساني في كلّ لحظة ، ولا تخلو منها الارض طرفة عين ، بل ولا ينبغي ذلك ولا يُعقل .

والحديث عن المنهج هنا لا يقصد منه معناه الاجرائي كطريقة في البحث ، بل المراد به نظام في التفكير، ومن ثم فنحن مع هذين المنهجين أمام نظامين فكريين متغايرين ، وبالنتيجة أمام ضربين من الامامة مختلفين .

النظامُ الاول وهو يَقْصُر الامامة على بعدها السياسي في قيادة الدولة والمجتمع إنّما يفرّغها من مدلولاتها القرآنية ، على حين يتعاطى معها النظام الفكري الثاني بكامل أبعادها القرآنية فيما تنهض به من دور وجوديٍّ وهدائيٍّ ، وعلميٍّ وسياسيٍّ وتربويٍّ ، فينتهي بها إلى أن تكون ضرورة وجودية ، وقانوناً في الهداية الخاصة لا يعقل تخلّفه ، وظاهرة دائمة تلازم الخليقة إلى أن تبلغ الانسانية كمالها المنشود ، وَتتحقق الغاية من وجود الانسان ، ومن بعث النبوات والرُّسل الكرام .

وهذا هو مغزى ما أشارت إليه هذه الدراسة الموجزة من عجز المنهج الكلامي بوجهيه القديم والحديث على أن يرتقي بالامامة إلى هذا المستوى ، بالاخص مع ما خالطه ـ في الاتجاه الامامي الشيعي الاثني عشري ـ من تأثيرات جاءت إليه من المنهج الكلامي للفريق الآخر ، بحيث بدا الاتجاه الامامي وكأنه يخوض معركة الدفاع عن الامامة على ساحة الفريق الآخر ، متورطاً بإشكالياته ، وأسئلته ومنطلقاته .

وهذه نتيجة طبيعية للنهج الدفاعي ولغياب التأسيس .

بإزاء ذلك اقترحت الدراسة أن يتم الانطلاق في بحث الامامة من منهج آخر أطلقت عليه المنهج القرآني .

والحصيلة التي خرج بها هذا المنهج ، أنَّ الامامة :

1 ـ دائمة لا تختص بعصر دون آخر .

2 ـ متقوّمة بالنص الخاص ومحصورة مصداقاً بمن حدّدهم النص .

3 ـ مُزودة بمؤهلات تتناسب مع مسؤولية الامام ، من عصمة وعلم خاص وولاية وغير ذلك .

وكنتيجة منطقيه وطبيعية لهذا المنهج والنظام الفكريّ الذي يكمن وراءَه ، لابدَّ وأن يكون النوع الانساني الآن معايشاً لوجود إمام قائم ، أثبتت بحوث الامامة الخاصة أنه هو الامام المهدي محمد بن الحسن العسكري عليه السلام ، على ما ستكشف عنه تفصيلاً هذه الدراسة في محاورها الاربعة .

أخيراً آمل أن تسدّ الدراسة بعض حاجات الساحة إلى هذا اللون من البحث ، وأن تكون قد وُفّقت لتسليط الاضواء على الاسئلة المثارة حول ذلك .

وحيث أكتب هذه الكلمات في ظلال ذكرى المولد النبوي الشريف ، أمدّ إلى الله سبحانه يد الضراعة والابتهال أن يتقبل ما في هذا القليل من جهد مرفوعاً ثوابه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، راجياً التفضل بالقبول.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب..

كمال الحيدري

ربيع المولد 1421 هـ

تمهيد

لم يعبأ العديد ممن كتب في بحث الامامة من علماء مدرسة أهل البيت ببعض الامور المنهجيّة التي أثّرت على سير بحوثهم ونتائجها .

ومن أهمّها عدم الالتفات إلى أثر التراث الكلامي لاتباع الخلفاء في التراث الكلامي لاتباع أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) .

ممّا أدّى بهم إلى أن يؤخّروا مواضيع أساسيّة من حقّها أن تتقدّم ، وتأخذ موقعها المناسب من البحث والتحقيق والتدقيق ، وبرّزوا بدلاً عنها مواضيع ثانويّة لا تشكّل المحور الاساسي لمثل هذه الابحاث .

وعلى هذا لابدّ من التعرّض إلى بيان هذه النكتة المنهجيّة ، وإلى تحديد المنهج المختار في بحث الامامة ومحاوره الاساسيّة ولو على نحو الاختصار .

تحرير محلّ النزاع

انطلقت المدرسة السنيّة من نقطة مركزيّة في تكوين نظامها الفكري لفهم نظريّة الامامة تمثّلت في أنّ الامام أو الخليفة ، يعني القائد والزعيم السياسي المسؤول عن إدارة شؤون الناس على مختلف الاصعدة والمستويات .

ثمّ إنّهم عندما أرادوا أن يفهموا شرائط وموانع هذه الامامة ـ التي هي الخلافة باصطلاح علم الكلام السنّي ـ حاولوا تأسيس ذلك من خلال الواقع الذي أوجده الخلفاء الثلاثة الاوائل ، فصارت بصدد إقامة الادلّة من الطرق المختلفة العقليّة والنقليّة لاثبات صحّة ما انتهت إليه الخلافة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فأرادت أن تعرف الحقّ من خلال معرفة الرجال .

« وحيث لم يتجاوز دور الامام في النظام الفكري لهذه المدرسة تخوم القيادة والزعامة السياسيّة ، فقد كان من

المنطقي ، بقطع النظر عن دلالات الوحي الالهي ، أن يولّوا وجوههم صوب نظريّة الشورى وانتخاب أهل الحلّ والعقد ، وذلك :

أوّلاً : لانّ هذه النظريّة أقرب إلى الذوق العرفي .

ثانياً : إنّ الحكومة شأن من شؤون الناس وعهد بينهم وبين الامام القائد ، وإذ يكون الامر كذلك ، فلابدّ أن يكون للامّة دور في إدارة الشؤون والنهوض بها ، لانّ القرآن ينص (وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)([1]) ، ومن الواضح أنّ الامامة بمعنى القيادة داخلة في أمر الناس ، لهذا اتجهت المجتمعات البشريّة صوب نظريّة الانتخاب لا النص .

وكان مما ترتب على تلك النواة المحوريّة في تأسيس نظريّة الامامة ، أنّهم التزموا بانقطاعها وعدم دوامها ، لانّ المفروض ، أنّ هذا المنصب لا يتحقّق لاحد إلاّ بعد الانتخاب والبيعة .

ومع عدم تحقّق ذلك لا يحق لاحد أن يتصدّى لهذه المسؤوليّة ويرغم الناس على القبول .

وعندما انتقلوا إلى الشروط التي لابدّ من توافرها ، فيمن يتصدّى للنهوض بهذا الدور ، لم يجدوا مناصاً من الالتزام ، بأنّه لا يشترط أن يكون معصوماً ، بل تكفيه من الناحية السلوكيّة العدالة بمعناها المتداول في البحث الفقهي ، ومن ناحية التأهيل العلمي تكفيه قدرة علميّة ترفعه إلى مستوى أداء المسؤوليّات التي أنيطت به .

وهكذا انتهت عناصر النظام الفكري للمدرسة السنيّة في الامام إلى المكوّنات التالية بشكل عام : 1 ـ لا تعني الامامة غير الحكم والقيادة السياسيّة .

2 ـ تتم هذه العمليّة بالانتخاب والشورى .

3 ـ إنّها منقطعة ليست دائمة .

4 ـ لا يشترط فيها غير العدالة والعلم بمعناهما المألوف .

ذلك كان التسلسل الذي وجّه العمليّة الفكريّة لبناء نظريّة الامامة في التصوّر السنّي .

النتائج الخطيرة

عند الانتقال إلى الجانب الآخر من المشهد ، نلمس أنّ المنهج الكلامي في المدرسة الشيعيّة ، لم يبادر في الاغلب إلى تحرير محلّ النزاع وتحديد الخلاف بين المدرستين ، بل دخل إلى تضاعيف البحث مباشرة ، فأشهر نظريّة النص بإزاء نظريّة الشورى ، وذهب إلى أنّ الامامة متصلة ومستمرة إلى أن يرث الله الارض ومن عليها ، في مقابل أولئك الذين أنكروا ديمومتها ، كما اشترط العصمة المطلقة على مستوى الاعتقاد والاخلاق والسلوك قبل البلوغ وبعده ، والعلم الكامل التام من غير كسب .

لكن لمّا كانت انطلاقة الطرفين المتنازعين ، تبدو وكأنّها تبدأ من نقطة شروع واحدة ، فقد وجد بعضٌ أنّ هناك ضرباً من التهافت وعدم الانسجام بين المسؤوليّة الملقاة على عاتق الامام ، وهي الزعامة والقيادة السياسيّة ، وبين الشروط والمواصفات التي ذُكرت له .

فالشروط تبدو أضخم وأوسع بكثير من المهمّة التي ينهض بها الامام .

ربما هذه النقطة والمفارقة التي استتبعتها ، هي التي تفسّر لنا التداعيات التي راحت تتهاوى إليها بعض الكتابات

المعاصرة حتّى داخل الصف الشيعي ذاته .

فمن هؤلاء من تجاوز تخوم الشكّ إلى حد رفض نظريّة النص في الامامة ، وما يستتبع ذلك من لوازم ، ومنهم من احتمل أنّ العصمة تكفي بحد معيّن لا تتجاوزه ، لعدم الحاجة إلى ما هو أزيد من ذلك .

وفريق رفض العصمة بنحو كلّي ، محتجّاً أنّها لو كانت شرطاً أساسيّاً في القائد ، فلماذا لم يلتزم أصحاب هذه النظريّة بهذا الشرط إلى آخر الشوط ؟ بل تخلّوا عنه واكتفوا بالقول بأنّه يكفي في الامام ـ أي القائد ـ أن يكون عادلاً لا أكثر في زمن الغيبة .

كما أنّ منهم من ذهب إلى أنّ النزاع في مَنْ هو الاحق بالامامة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) نزاع تأريخي عقيم لا طائل من ورائه .

ومنهم من راح يتساءل عن الفائدة المترتبة على وجود إمام غائب عن الانظار ليس بمقدوره أن يواجه مشكلات العصر ويجيب عمّا يثيره من تحدّيات ، ويتحمّل مسؤوليّته فعلاً ، فإنّ وجود مثل هذا الامام يعد لغواً لا فائدة منه ، وهو محال على الحكيم سبحانه .

لقد نشأت هذه التساؤلات والاستفهامات على أرضيّة تلك الانطلاقة التي أسس لها نظام الفكر السنّي في فهم الامامة ، وتبعتها بعض الاتجاهات في الكلام الشيعي »([2]) .

الامامة القرآنيّة

إنّ الذي نستوحيه من القرآن الكريم ، والسنّة النبويّة الشريفة ، والروايات الصحيحة الواردة عن أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) الذين هم عدل القرآن العظيم كما هو نص حديث الثقلين المتواتر سنداً ومضموناً ، أنّ الامامة التي تعتقد بها مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) تختلف اختلافاً جوهريّاً عن دور الامامة التي تنحصر في الخلافة والحكم ، وذلك لانّ هذا الاتجاه يرى أنّ للامامة دوراً فوق دور القيادة والزعامة ، وهو الدور الذي بيّنه القرآن الكريم من خلال قوله تعالى : (إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً)([3]) ، وأشار إليه بقوله لابراهيم الخليل (عليه السلام) في قوله تعالى : (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)([4]) ، وهي التي عبّر عنها الامام الرضا (عليه السلام) : « هل يعرفون قدر الامامة ومحلّها من الامّة ، فيجوز فيها اختيارهم ، إنّ الامامة أجلّ قدراً ، وأعظم شأناً ، وأعلى مكاناً ، وأمنع جانباً ، وأبعد غوراً ، من أن يبلغها الناس بعقولهم ، أو ينالوها بآرائهم ، أو يقيموا إماماً باختيارهم .

إنّ الامامة خصّ الله عزّوجلّ بها إبراهيم الخليل (عليه السلام) بعد النبوّة والخلّة مرتبة ثالثة وأشاد بها ذكره ، فقال : (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) »([5]) .

وهي التي قال عنها الامام السجّاد (عليه السلام) : « نحن الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الارض إلاّ بإذنه ، وبنا يمسك الارض أن تميد بأهلها ، وبنا ينزّل الغيث ، وبنا ينشر الرحمة ويخرج بركات الارض ، ولولا ما في الارض منّا لساخت بأهلها »([6]) .

لذا عندما يُسأل الامام الباقر (عليه السلام) ويُقال له : لايّ شيء يحتاج إلى النبي والامام ؟ يقول (عليه السلام) : «

لبقاء العالم على صلاحه .

وذلك أنّ الله عزّ وجلّ يرفع العذاب عن أهل الارض إذا كان فيها نبي أو إمام ، قال الله عزّ وجلّ : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ)([7]) .

من هنا عبّر الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) عن هذا الدور لاهل بيته (عليهم السلام) بقوله : « النجوم أمان لاهل السماء ، وأهل بيتي أمان لاهل الارض ، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون ، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الارض ما يكرهون»([8]) .

ولعلّ تشبيه انتفاع الناس بالحجّة في زمان غيبته ، عندما يُسأل الامام الصادق (عليه السلام) : فكيف ينتفع الناس بالحجّة الغائب المستور ؟ قال (عليه السلام) : « كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب »([9]) يشير إلى حقيقتين أساسيّتين :

الاولى : أنّ الانتفاع به لا يختص بعالم التشريع والاعتبار ، بل يتجاوز ذلك إلى عالم التكوين .

الثانية : أنّ هذا الامر غير محسوس ومرئي للناس ، بل يرتبط بعالم الغيب لا نشأة الشهادة .

وتأسيساً على ما تقدّم فنحن نعتقد أنّه لا يمكن الوقوف على فلسفة ما اشترطناه في الامامة من العصمة والنص والديمومة والعلم الخاص ، إلاّ إذا أدركنا المهام والمسؤوليّات التي أنيطت بدور الامامة والخلافة في النظريّة القرآنيّة .

وخصوصاً ما نصطلح عليه بـ « الدور الوجودي » للامام (عليه السلام) ، وهو غير « الدور التشريعي » و« القيادة السياسيّة » و« القدوة الصالحة » .

بل إن صحّ التعبير فإنّ هذه الادوار إنّما هي ثمرات ذلك الاصل الذي عبّر عنه القرآن الكريم بـ « الشجرة الطيّبة » التي (أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينِم بِإِذْنِ رَبِّهَا وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُنَ) ([10]) .

ومن الواضح أنّ هذا البحث لا يتسع للدخول في بيان تفاصيل هذه النظريّة القرآنيّة ، لكن نقول على نحو الاجمال والاشارة ، أنّ هناك طريقين لفهم هذه الحقيقة القرآنيّة ، يختلف أحدهما عن الآخر في الآثار والنتائج المترتبة عليهما :

الطريق الاوّل : أن نرجع إلى القرآن والسنّة المباركة لنرى ماذا يقولان عن حقيقة الامامة وشرائطها ، بقطع النظر عن المسؤوليّات والوظائف التي ألقيت على عاتقها .

الطريق الثاني : وهو الاسلوب الذي اتبعه كثير من علماء الكلام من الفريقين ، وهو الذي سمّي في كلماتهم بالدليل العقلي لاثبات الامامة وشرائطها .

ومنطلقه أن تحدّد المسؤوليّات الاساسيّة التي ألقيت على عاتق النبي أو الامام ، ثمّ يلتزمون بالشرائط التي لابدّ من توافرها في الشخص المسؤول عن ذلك ، من خلال معرفة حدود تلك الوظائف ، ومدى المسؤوليّات التي ينهض بها الامام([11]) .

ويمكن التعبير عن الطريق الاوّل بالمنهج اللمّي الذي يتحرّك من العلّة إلى المعلول لاننا نبحث فيه الامامة في نفسها

لنتعرّف على الامامة القرآنيّة التي وردت في قوله تعالى : (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)([12]) وقوله تعالى : (وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)([13]) ، وما هو المراد من الخلافة كمصطلح قرآني لا كلامي ، كما ورد في قوله تعالى : (إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً) ، ثمّ ننتقل إلى بيان شرائطها وموانعها ، ثمّ نتوقّف عند المسؤوليّات والمهام التي أوكلت إليها .

كما يمكن التعبير عن الطريق الثاني بالمنهج الآتي الذي يتحرّك من المعلول إلى العلّة ، لأنّنا ننتهي فيه من خلال المسؤوليّات الملقاة على عاتق الامام إلى الشرائط الواجب توافرها فيه ، وسوف نحاول في هذا البحث اختيار الطريق الاوّل في طرح بعض مسائل الامامة الاساسيّة :

أوّلاً : هل ظاهرة الامامة مستمرة أم منقطعة ؟

ثانياً : هل الامامة على فرض استمرارها تنحصر في عدد معيّن أم لا ؟

ثالثاً : إذا كانت منحصرة في عدد معيّن ، فمن هم هؤلاء الائمّة ؟

رابعاً : إذا تعيّن الامام الاخير منهم ، فهل هو حي الآن ، أم سيولد بعد ذلك ؟

ولا يخفى أنّ بعض عناصر هذه المسائل تدخل في بحوث الامامة العامّة ، وبعضها الآخر في بحوث الامامة الخاصّة .

توضيح ذلك : أنّ المنهج الذي نقترحه لفهم الامامة يقوم على أساس البحث في مستويين : الاوّل : الامامة العامّة .

الثاني : الامامة الخاصّة .

« وربما كانت أفضل وسيلة لفهم المراد من هذين المستويين ، مقاربة الامامة بالنبوّة منهجيّاً ، فمن المعروف أنّ المنهج الكلامي يدرس النبوّة على مرحلتين :

الاولى : النبوّة العامّة : وهذه تدور حول أسئلة من قبيل : ما حاجة البشر إلى النبوّة وبعث الرسل ؟ ولماذا لا يمكن للبشريّة أن تستغني بعقلها وتكتفي به في تحقيق الغاية التي خُلقت من أجلها ؟ وما هي شروط النبي العامّة ؟ حيث انتهى البحث إلى ضرورة أن يكون أي نبي مبعوث من السماء ، معصوماً مؤيّداً بمعجزة ، مسدداً بالبيّنات ، بحسب التعبير القرآني ، إلى غير ذلك من البحوث المتداولة في علم الكلام .

الثانية : وتحوم بحوثها حول أسئلة خاصّة مثل : من هو النبي ؟ ما هي طبيعة الاوضاع الزمانيّة والمكانيّة في عصر بعثته ؟ ما هي المعجزة التي زُوّد بها ؟ لماذا هذه المعجزة بالذات دون سواها ؟ هل يُعد من أولي العزم أم لا ؟ هل هو رسول ونبي أم نبي وحسب ؟ إلى غير ذلك من الاسئلة التي تنصب حيال نبوّة نبي بعينه ، كنبوّة محمّد خاتم الانبياء (صلى الله عليه وآله) مثلاً .

وكذلك تتم معالجة الامامة في المنهج المقترح من خلال خطوتين أو مرحلتين ، الامامة العامّة والامامة الخاصّة .

فالمرحلة الاولى تضطلع بالبحث عن المسؤوليّات التي أنيطت بالامامة بشكل عام ، وتدرس المكوّنات الاساسيّة لنظريّة الامامة بإطلاق أسئلة مثل : هل الامامة منصوصة أم لا ؟ هل يشترط في الامام أن يكون معصوماً أم لا ؟ هل ينبغي أن تكون الامامة دائمة أم منقطعة ؟ إلى غير ذلك من العناصر الاساسيّة التي تؤلّف الاصول العامّة لبحث الامامة .

وهذه المرحلة ترتبط بالمفهوم العام للامامة ، ولا صلة لها بتحديد هويّة الائمّة وعددهم ، وما يدخل في مهام المرحلة الثانية .

أمّا المرحلة الثانية فتنهض ببحث أبعاد الامامة الخاصّة ومسؤوليّاتها ، وتدرس مَنْ هم الائمّة ؟ وما هو عددهم ؟ وما هي صيغ إثبات إمامتهم ؟ ما هي خصائص كلّ واحد منهم ؟ وهل يتفاضلون فيما بينهم ؟ لماذا اختص بعضهم بخصوصيّات لا توجد في غيره ؟ إلى غير ذلك من البحوث التفصيليّة »([14]) .

المحور الاوّل

استمرار الإمامة وديمومتها

لا إشكال أنّ النبوّة كظاهرة إلهيّة غيبيّة ، منقطعة وليست مستمرة ، وأنّها خُتمت بمحمّد (صلى الله عليه وآله) ، قال تعالى : (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَد مِّن رِّجَالِكُمْ وَ لَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْء عَلِيمًا)([15])، فهل الامامة أيضاً ظاهرة منقطعة كالنبوّة، أم هي مستمرّة إلى أن يرث الله الارض ومن عليها؟

الظاهر أن الآيات والروايات الواردة عن النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) تؤكّد استمرار ظاهرة الامامة والخلافة وعدم انقطاعها .

دلائل استمرار الامامة

يمكن الاستدلال على إثبات هذه الحقيقة من خلال الآيات القرآنيّة أوّلاً ، ومن طريق الروايات ثانياً .

الطريق الاوّل : الآيات القرآنيّة

الآية الاولى : قوله تعالى : (وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)([16]) .

أشارت هذه الآية المباركة إلى :

أوّلاً : أنّ هذا الخليفة أرضي ، وهو موجود في كلّ زمان ، والدال على ذلك قوله : (جَاعِلٌ) لانّ الجملة الاسميّة ، وكون الخبر على صيغة « فاعل » التي هي بمنزلة الفعل المضارع ، تفيد الدوام والاستمرار ، مضافاً إلى أنّ الجعل في اللغة ، كما يقول الراغب في المفردات ، له استعمالات متعدّدة ومنها « تصيير الشيء على حالة دون حالة »([17]) ، وهذا ما أكّده جملة من المفسرين ، كالرازي في « التفسير الكبير »([18]) والآلوسي في « روح المعاني »([19]) ، وعندما يقارن هذا الجعل بما يناظره من الموارد في القرآن الكريم نجد أنّه يفيد معنى السنّة الالهيّة كقوله تعالى : (جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَلاً) و(وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا) ونحوهما .

ثانياً : إنّ هذا الخليفة ليس هو مطلق الانسان فيكون من قبيل قوله تعالى : (هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَئِفَ فِى الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ)([20]) .

وإنّما المقصود به إنسان بخصوصه ، وذلك بقرينة الآيات اللاحقة التي أثبتت أنّ هذا الموجود الارضي إنّما استحقّ الخلافة الالهيّة لانّه عُلِّم الاسماء كلّها مباشرة منه تعالى : (وَ عَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا) ، ثمّ صار واسطة بينه تعالى

وبين ملائكته (يَادَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ) ومن الواضح أنّه لا يمكن أن يراد به كلّ انسان ، حتّى أولئك الذين عبّر عنهم القرآن الكريم بقوله تعالى : (أُولَئِكَ كَالأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ)([21]) ، إذن فهذه الآية تدل على ضرورة استمرار الخلافة الالهيّة ، أمّا من هو ذلك الخليفة في كلّ زمان فله بحث آخر ، سنعرض له لاحقاً .

الآية الثانية : قوله تعالى لابراهيم الخليل (عليه السلام) : (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)([22]) ، وهذه الامامة هي غير النبوّة والرسالة التي كانت لابراهيم (عليه السلام) .

والشاهد على ذلك :

1 ـ « طلب الامامة للذريّة حيث قال : (وَ مِن ذُرِّيَّتِى) ، ومن الواضح أنّ حصول إبراهيم (عليه السلام) على الذريّة كان في كبره وشيخوخته ، كما قال : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَعِيلَ وَ إِسْحَقَ)([23]) ، وحكى سبحانه عن زوجة إبراهيم : (قَالَتْ يَوَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هَذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ)([24]) .

ولا يصح هذا الطلب إلاّ لمن كان عنده ذريّة ، أمّا من كان آيساً من الولد ويجيب مبشّريه بقوله : (أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَن مَّسَّنِىَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ)([25]) ، فلا يصح منه والحالة هذه أن يطلب أي شيء لذريّته »([26]) .

ولو كان ذلك في أوائل حياته وقبل أن يرزق الذريّة ، لكان من الواجب أن يقول : « ومن ذريّتي إن رزقتني ذريّة » ، وإلاّ لزم منه أن يخاطب الخليل (عليه السلام) ربّه الجليل بما لا علم له به ، وهذا ما يتنزّه عنه مقام إبراهيم الخليل (عليه السلام) .

2 ـ « إنّ قوله تعالى : (وَ إِذِ ابْتَلَى إِبْرَ هِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَت فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)([27]) يدل على أنّ هذه الامامة الموهوبة إنّما كانت بعد ابتلائه بما ابتلاه الله به من الامتحانات ، وليست هذه إلاّ أنواع البلاء التي ابتُلي (عليه السلام) بها في حياته ، وقد نصّ القرآن على أنّ مِن أوضحها قضيّة ذبح إسماعيل (عليه السلام) ، قال تعالى : (قَالَ يَبُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ) إلى أن قال : (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَؤُا الْمُبِينُ)([28]) »([29]) .

وهذا ما أكدته جملة من الروايات الصحيحة الواردة في المقام .

عن الامام الصادق (عليه السلام) في حديث مطوّل يقول فيه : « وقد كان إبراهيم عليه السلام نبيّاً وليس بإمام حتّى قال الله (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) »([30]) .

وهذه الامامة التي ثبتت لابراهيم (عليه السلام) طلبها لذريّته من بعده ، حيث قال : (وَ مِن ذُرِّيَّتِى) وقد استجاب الحقّ سبحانه دعاءه ، ولكن لم يجعلها في الظالمين من ذريّته ، وإنّما في غيرهم .

يقول الرازي في ذيل هذه الآية : « وقوله : (وَ مِن ذُرِّيَّتِى) طلب للامامة التي ذكرها الله تعالى ، فوجب أن يكون المراد بهذا العهد هو الامامة ، ليكون الجواب مطابقاً للسؤال ، فتصير الآية كأنّه تعالى قال : (لا ينال الامامة الظالمين ، وكل عاص فإنّه ظالم لنفسه) فكانت الآية دالّة على ما قلناه .

فإن قيل : ظاهر الآية يقتضي انتفاء كونهم ظالمين ظاهراً وباطناً ، ولا يصح ذلك في الائمّة والقضاة .

قلنا : أمّا الشيعة ، فيستدلّون بهذه الآية على صحّة قولهم في وجوب العصمة ظاهراً وباطناً .

وأمّا نحن فنقول : مقتضى الآية ذلك .

إلاّ أنّا تركنا اعتبار الباطن فتبقى العدالة الظاهرة معتبرة »([31]) .

لكن لم يبيّن لنا الرازي ، لماذا ترك ما دلّت عليه الآية من وجوب العصمة ظاهراً وباطناً ، واكتفى بالعدالة الظاهريّة ، مع اعترافه بدلالة الآية على ذلك ، وكيف كان (سَتُكْتَبُ شَهَدَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ)([32]) .

ومن الواضح أنّ استجابة دعائه في ذريّته ، لا يختص بالصلبيين فقط ، بل هو شامل لجميع ذريّته شريطة أن لا يكون ظالماً .

وهذا ما أكّده الامام الرضا (عليه السلام) بقوله : « إنّ الامامة خصّ الله عزّ وجلّ بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النبوّة والخلّة مرتبة ثالثة ، وفضيلة شرّفه بها وأشاد بها ذكره، فقال: (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) ، فقال الخليل عليه السلام سروراً بها : (وَمِن ذُرِّيَّتِى) قال الله تباركوتعالى: (لاَيَنَالُ عَهْدِى الظَّلِمِينَ) فأبطلت هذه الآية إمامة كلّ ظالم إلى يوم القيامة وصارت في الصفوة، ثمّ أكرمه الله تعالى بأن جعلها في ذريّته أهل الصفوة والطهارة، فقال: (وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كُلاًّ جَعَلْنَا صَلِحِينَ * وَ جَعَلْنَهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَ تِ وَ إِقَامَ الصَّلَوةِ وَ إِيتَآءَ الزَّكَوةِ وَ كَانُوا لَنَا عَبِدِينَ)([33]) ، فلم تزل في ذريّته يرثها بعض عن بعض ، قرناً فقرناً ، حتّى ورّثها الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله فقال جلّ وتعالى : (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَ هِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِىُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِينَ)([34]) فكانت له خاصّة ، فقلّدها عليّاً عليه السلام بأمر الله تعالى على رسم ما فرض الله ، فصارت في ذريّته الاصفياء الذين آتاهم الله العلم والايمان بقوله تعالى : (وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الاْيمَنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَبِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ)([35]) فهي في ولد علي عليه السلام خاصّة إلى يوم القيامة »([36]) .

الآية الثالثة : (وَ إِذْ قَالَ إِبْرَ هِيمُ لاَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)([37]) .

« ذهب جمع من المفسرين إلى أنّ الكلمة الباقية في عقب إبراهيم (عليه السلام) هي كلمة التوحيد ، إذ براءته مما يعبد قومه ، واتجاهه نحو الذي فطره هو عين معنى كلمة التوحيد (لا إله إلاّ الله) ، وقوله : (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) ، أي يرجع المشرك منهم بدعوة الموحّد إلى الله تعالى([38]).

إذن ، فقد جعل الله تعالى التوحيد باقياً في ذريّة إبراهيم (عليه السلام) وعقبه ، ولا تخلو ذريّته من الموحّدين .

وقد بيّنا في كتاب « العصمة » أنّ جميع المعاصي نوع ، بل مرتبة من مراتب الشرك بالله تعالى ، والتوحيد الذي جعله الله تعالى باقياً في عقب إبراهيم (عليه السلام) لابدّ أن يكون التوحيد الحقيقي ، الذي لا يشوبه شيء من الشرك أبداً ، ليستحق الاشادة به في القرآن الكريم ، وإلاّ فلا يمكن أن يريد به التوحيد الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله : (وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَ هُم مُّشْرِكُونَ)([39]) .

هذا مضافاً إلى أنّ ظاهر الآية أنّ هذا التوحيد الباقي في عقبه هو التوحيد الابراهيمي الذي لم يخالطه أدنى شرك بالله العظيم .

لكن من كان يتحلّى بمثل هذا التوحيد الحقيقي علماً وعملاً ؟ ومن كان يحمل بين جوانحه ما يحمله شيخ الموحّدين الذي (قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَلَمِينَ)([40]) ؟

لا شكّ أنّ الذي يتحلّى بذلك هو الذي ناله عهد الله سبحانه من ذريّة الخليل (عليه السلام) حينما قال : (وَ مِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّلِمِينَ) .

ومن هنا يتضح جليّاً بقاء الامامة التي جعلها الله تبارك وتعالى لخليله إبراهيم (عليه السلام) ، ببقاء تلك الكلمة المباركة في عقبه وذريّته »([41]) .

وعلى هذا الاساس جاءت جملة من الروايات التي بيّنت أنّ هذه الكلمة الباقية في عقبه (عليه السلام) هي الامامة .

عن أبي هريرة قال : سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن قوله عزّ وجلّ : (وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ) قال : « جعل الامامة في عقب الحسين يخرج من صلبه تسعة من الائمّة ، ومنهم مهدي هذه الامّة »([42]) .

وأكتفي بهذا القدر من الآيات التي دلّت على استمرار الامامة والخلافة إلى يوم القيامة ، وهناك آيات أخرى تشير إلى هذه الحقيقة القرآنيّة ، نؤجّل الحديث عنها إلى مواضعها المناسبة .

الطريق الثاني : الروايات

هناك طوائف متعدّدة من الروايات تشير إلى أنّ ظاهرة الامامة مستمرّة غير منقطعة ، نقف عند بعضها :

الطائفة الاولى : روايات حديث الثقلين:

« هذا الحديث يكاد يكون متواتراً ، بل هو متواتر فعلاً ، إذا لوحظ مجموع رواته من الشيعة والسنة في مختلف الطبقات ، واختلاف بعض الرواة في زيادة النقل ونقيصته ، تقتضيه طبيعة تعدّد الواقعة التي صدر فيها ، ونقل بعضهم له بالمعنى ، وموضع الالتقاء بين الرواة متواتر قطعاً.

وحسب الحديث لان يكون موضع اعتماد الباحثين ، أن يكون من رواته ، كل من صحيح مسلم ، وسنن الدارمي ، وخصائص النسائي ، وسنن أبي داود ، وابن ماجة ، ومسند أحمد ، ومستدرك الحاكم ، وذخائر الطبري ، وحلية الاولياء ، وكنز العمّال ، وغيرهم ، وأن تعنى بروايته كتب المفسرين أمثال الرازي ، والثعلبي ، والنيسابوري ، والخازن ، وابن كثير ، وغيرهم .

بالاضافة إلى الكثير من كتب التاريخ ، واللغة ، والسير ، والتراجم .

وما أظن أنّ حديثاً يملك من الشهرة ما يملكه هذا الحديث ، وقد أوصله ابن حجر في الصواعق المحرقة إلى نيّف وعشرين صحابيّاً .

يقول في كتابه : (ثم اعلم أنّ لحديث التمسك بذلك طرقاً كثيرة وردت عن نيّف وعشرين صحابيّاً)([43]) ، وفي غاية المرام وصلت أحاديثه من طرق السنّة إلى (39 حديثاً) ، ومن طرق الشيعة إلى (82 حديثاً) »([44]) .

بل في « نفحات الازهار في خلاصة عبقات الانوار » للامام السيد حامد حسيني الكهنوي ، ذكر أنّ هذا الحديث : « رواه عن النبي (صلى الله عليه وآله) أكثر من ثلاثين صحابيّاً ، وما لا يقل عن ثلاثمائة عالم من كبار علماء أهل السنّة ، في مختلف العلوم والفنون ، في جميع الاعصار والقرون ، بألفاظ مختلفة وأسانيد متعدّدة ، وفيهم أرباب الصحاح والمسانيد وأئمّة الحديث والتفسير والتاريخ ، فهو حديث صحيح متواتر بين المسلمين »([45]).

ولسان الحديث ، كما في رواية زيد بن أرقم : « إنّي تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الارض ، وعترتي أهل بيتي ، ولن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفونني فيهما »([46]) .

ومقتضى عدم افتراق العترة عن القرآن الكريم ، هو بقاء العترة إلى جنب القرآن إلى يوم القيامة، وعدم خلوّ زمان من

الازمنة منهما ، لانّهما لن يفترقا حتّى يردا عليه الحوض.

يقول ابن حجر : « وفي أحاديث الحث على التمسّك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهّل منهم ، للتمسك به إلى يوم القيامة ، كما أنّ الكتاب العزيز كذلك ، ولهذا كانوا أماناً لاهل الارض »([47]) .

الطائفة الثانية : روايات «لا تخلو الارض من قائم لله بحجّة»

ورد مضمون هذا الحديث بعبارات مختلفة في كلمات الاعلام من الفريقين منهم الاسكافي المعتزلي في « المعيار والموازنة » ، وابن قتيبة في « عيون الاخبار » ، واليعقوبي في تاريخه ، وابن عبدربّه في « العقد الفريد » ، وأبو طالب المكّي في « قوت القلوب » ، والبيهقي في « المحاسن والمساوئ » ، والخطيب البغدادي في تأريخه وغيرهم([48]) .

يقول ابن أبي الحديد : « كي لا يخلو الزمان ممن هو مهيمن لله تعالى على عباده ، ومسيطر عليهم ، وهذا يكاد يكون تصريحاً بمذهب الاماميّة ، إلاّ أنّ أصحابنا يحملونه على أنّ المراد به الابدال »([49]) .

وقال ابن حجر : « وفي صلاة عيسى عليه السلام خلف رجل من هذه الامّة ، مع كونه في آخر الزمان ، وقرب قيام الساعة ، دلالة للصحيح من الاقوال ، أنّ الارض لا تخلو من قائم لله بحجّة »([50]) .

أمّا في المجاميع الحديثيّة الشيعيّة ، فقد وردت المئات من الروايات التي تؤكّد هذه الحقيقة ، وهي أنّ الارض لا تخلو من حجّة لله تعالى ، وأنّها لو خلت لساخت بأهلها .

ويمكن مراجعة جملة منها في بحار الانوار ، بحيث بلغت زهاء (120 رواية) بهذا المضمون أو ما يقرب منه .

ومن أمثلة ذلك :

1 ـ عن الامام الصادق (عليه السلام) : « ولولا ما في الارض منّا لساخت بأهلها ، ثمّ قال : ولم تخل الارض منذ خلق الله آدم من حجّة لله فيها ظاهر مشهور أو غائب مستور ، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجّة لله فيها » .

([51])

2 ـ قال الصادق (عليه السلام) : « لو لم يبقَ في الارض إلاّ رجلان لكان أحدهما الحجّة »([52]) .

الطائفة الثالثة : روايات « من مات ولم يعرف إمام زمانه »:

أو ما يقرب من مضمونه ، مثل : « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهليّة » أو « من مات وليس عليه إمام ، فإنّ موتته موتة جاهليّة » أو « من مات بغير إمام مات ميتة جاهليّة » .

وتناقلت كتب الحديث السنيّة فضلاً عن الموسوعات الحديثيّة الشيعيّة ، هذا الحديث بألفاظ مختلفة ، فقد نقله البخاري ، ومسلم ، وابن حنبل ، وابن حبّان ، والطبراني ، والحاكم النيسابوري ، وأبو نعيم الاصفهاني ، وابن الاثير الجزري ، والطيالسي ، والدولابي ، والبيهقي ، والسرخسي ، وابن أبي الحديد ، والنووي ، والذهبي ، وابن كثير ، والتفتازاني ، والهيثمي ، والمتقي الهندي ، وابن الربيع الشيباني ، والقندوزي الحنفي ، والاسكافي المعتزلي ، وغيرهم([53]) .

ولابدّ من الاشارة هنا إلى نكتة ، وهي : قد يستشكل بعضٌ على جملة من هذه الروايات التي ترد في مثل هذه البحوث بأنّها ضعيفة السند ، إلاّ أنّ هذا الاشكال غير تام بحسب الموازين العلميّة الثابتة في محلّها ، لانّ هذه الروايات ليست

هي آحاد ، حتّى يمكن الاشكال السندي فيها ، وإنّما هي من الكثرة بمكان ، بنحو إمّا أن تكون متواترة ، أو قريبة من ذلك ، ومن الواضح أنّه في مثل هذه الحالة لا مجال للبحث السندي فيها ، طبعاً مع مراعاة الخصوصيّات والعوامل الموضوعيّة والذاتيّة التي أشار إليها أستاذنا الشهيد الصدر (قدس سره) في نظريّة حساب الاحتمالات ، فإنّه مع الاخذ بعين الاعتبار تلك العوامل ، فلا ريب في حصول الاطمئنان للباحث المنصف ، في صدور كثير من هذه الاحاديث عن النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) وأئمّة أهل البيت (عليهم السلام) .

الهوامش

([1]) الشورى : 38 .

([2]) بحث حول الامامة ، نص الحوار مع السيّد كمال الحيدري ، حاوره جواد علي كسّار ، المقدّمة، ص15 .

([3]) البقرة : 30 .

([4]) البقرة : 124 .

([5]) الاصول من الكافي ، ج 1 ، ص 199 ، كتاب الحجّة ، باب نادر وجامع في فضل الامام وصفاته .

([6]) بحار الانوار ، ج 23 ، ص 6 ، ح 10 .

([7]) الانفال : 33 .

([8]) بحار الانوار ، ج 23 ، ص 19 ، ح 14 .

([9]) بحار الانوار ، ج 23 ، ص 6 ، ح 10 .

([10]) إبراهيم : 24 - 25 .

([11]) العصمة ، محاضرات السيّد كمال الحيدري ، بقلم محمّد القاضي ، الطبعة الخامسة، ص 18 .

([12]) البقرة : 124 .

([13]) السجدة : 24 .

([14]) بحث حول الامامة ، المقدّمة، ص11 .

([15]) الاحزاب : 40 .

([16]) البقرة : 30 .

([17]) المفردات في غريب القرآن ، ص 94 ، مادّة « جعل » .

([18]) التفسير الكبير ، ج 2 ، ص 165 .

([19]) روح المعاني ، ج 1 ، ص 220 .

([20]) فاطر : 39 .

([21]) الاعراف : 179 .

([22]) البقرة : 124 .

([23]) إبراهيم : 39 .

([24]) هود : 72 .

([25]) الحجر : 54 .

([26]) العصمة ، مصدر سابق ، ص 32 .

([27]) البقرة : 124 .

([28]) الصافات : 106 .

([29]) الميزان في تفسير القرآن ، ج 1 ، ص 268 .

([30]) الاصول من الكافي ، ج 1 ، ص 174 .

([31]) التفسير الكبير ، ج 4 ، ص 42 .

([32]) الزخرف : 19 .

([33]) الانبياء : 73 .

([34]) البقرة: 68.

([35]) الروم : 56 .

([36]) الاصول من الكافي ، ج 1 ، ص 199 ، باب في فضل الامام وصفاته .

([37]) الزخرف : 26 - 28 .

([38]) البيان ، ج9 ، ص193 ; الكشّاف ، ج4 ، ص246 ; التفسير الكبير ، ج27 ، ص208 ; الميزان ، ج18 ، ص96 .

([39]) يوسف : 106 .

([40]) البقرة : 131 .

([41]) العصمة ، ص 35 .

([42]) كفاية الاثر ، ص 86 .

([43]) الصواعق المحرقة ، ص 148 .

([44]) الاصول العامّة للفقه المقارن ، دار الاندلس ، ص 164 .

([45]) نفحات الازهار في خلاصة عبقات الانوار في إمامة الائمّة الاطهار ، لحجّة التاريخ والبحث والتحقيق الامام السيّد حامد حسين الكهنوي ، بقلم علي الحسيني الميلاني ، ج 1 ، ص 185 .

([46]) سنن الترمذي ، ج 5 ، ص 664 ، ح 3786 .

([47]) الصواعق المحرقة ، ص 149 .

([48]) المعيار والموازنة ، ص 81 ; عيون الاخبار ، ص 7 ; تاريخ اليعقوبي ، ج 2 ، ص 400 ; العقد الفريد ، ج 1 ، ص 265 ; قوت القلوب في معاملة المحبوب، ج 1 ، ص 227 ; المحاسن والمساوئ ص 400 ; تاريخ بغداد ، ج6 ، ص 479 ; المناقب للخوارزمي ، ص 13 ; مفاتيح الغيب للرازي ، ج 2 ، ص 192 ; فتح الباري في شرح

صحيح البخاري ، ج 6 ، ص 270 ، ح 3 ، وج 1 ، ص 274 ، ح 3 .

([49]) شرح نهج البلاغة ، ج 18 ، ص 351 .

([50]) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، ج 6 ، ص 385 .

([51]) بحار الانوار ، ج 23 ، باب الاضطرار إلى الحجّة ، ح 10 .

([52]) بحار الانوار ، ج 23 ، باب الاضطرار إلى الحجّة ، ح 24 .

([53]) صحيح البخاري : باب الفتن ، ج 5 ، ص 13 ; صحيح مسلم ، ج 6 ، ص 21 ، ح 1849 ; مسند أحمد ، ج2 ، ص 83 ; الاحسان بترتيب صحيح ابن حبّان ، ج 7 ، ص 49 ، ح 4554 ; المعجم الكبير للطبراني ،ج 10 ، ص 355 ، ح 10687 ; المستدرك ، ج 1 ، ص 77 ; حلية الاولياء ، ج 3 ، ص 224 ; جامع الاصول ، ج 4 ، ص 7 ; مسند الطيالسي ، ص 259 ; الكنى والاسماء ، ج 2 ، ص 3 ; سنن البيهقي ، ج 8 ، ص 156 - 157 ; المبسوط ، ج 1 ، ص 113 ; شرح نهج البلاغة ، ج 9 ، ص 100 ; شرح صحيح مسلم للنووي ، ج 12 ، ص 44 ; تلخيص المستدرك للذهبي ، ج 1 ، ص 77 ; تفسير ابن كثير ، ج 1 ، ص 517 ; شرح المقاصد ، ج 2 ، ص 275 ; مجمع الزوائد ، ج 5 ، ص 218 - 219 ; كنز العمّال ، ج 3 ، ص 200 ; تيسير الوصول ، ج 2 ، ص 350 ; ينابيع المودّة ، ص 117 ; خلاصة نقض كتاب العثمانيّة للجاحظ ، ص 29 .

المحور الثاني

عدد الائمّة

بعد أن ثبت في البحث السابق أنّ الامامة ظاهرة مستمرّة غير منقطعة ، نحاول في هذا البحث الوقوف على أنّ الائمّة هل ينحصر عددهم في حدّ معيّن أم لا ؟

تبنّى أتباع مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) حصر عدد الائمّة باثني عشر إماماً ، تبعاً لما بين أيديهم من الروايات الصحيحة الدالّة على ذلك .

حينئذ قد يثار إشكال على هذا الحصر ، مؤدّاه أنّ هؤلاء إنّما اضطرّوا إلى ذلك لاسباب تأريخيّة أو سياسيّة ونحوها ، وإلاّ فإنّ مقتضى ما تقدّم من البحث في المحور الاوّل ، هو استمرار الامامة وعدم الوقوف بها عند حدٍّ معيّن .

غير أنّ إثارة مثل هذا الاشكال أمر غريب ، خصوصاً ممّن يدّعي أنّه يريد الوقوف على هذه الابحاث من خلال الموازين العلميّة بالبحث والتحقيق .

وذلك لانّنا عندما نرجع إلى صريح القرآن الكريم ، نراه يعبّر عن الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) بأنّه : (وَ مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى)([54]) ، ويقول في حقّه : (وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)([55]) .

ثمّ رتب القرآن على ذلك وجوب الاخذ منه (صلى الله عليه وآله) حيث قال : (وَ مَآ ءَاتَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا)([56]) .

وتأسيساً على ذلك كلّه بيّن دور الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) حيث قال : (وَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)([57]) ، وهكذا قام الرسول (صلى الله عليه وآله) ببيان ما أُمر بإبلاغه للناس ، لذا يقول الامام الرضا (عليه السلام) : « إنّ الله عزّ وجلّ لم يقبض نبيّه صلى الله عليه وآله حتّى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كلّ شيء ، بيّن فيه الحلال والحرام ، والحدود والاحكام ، وجميع ما يحتاج إليه الناس كملاً ، فقال عزّ وجلّ : (مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَبِ مِن شَىْءٍ) ، وأنزل في حجّة الوداع وهي آخر عمره صلى الله عليه وآله : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَمَ دِينًا)([58]) ، وأمر الامامة من تمام الدين ، ولم يمض صلى الله عليه وآله حتّى بيّن لامّته معالم دينهم وأوضح لهم سبيله وتركهم على قصد سبيل الحق ، وأقام لهم عليّاً عليه السلام علَماً وإماماً .

وما ترك لهم شيئاً تحتاج إليه الامّة إلاّ بيّنه ، فمن زعم أنّ الله عزّ وجلّ لم يكمّل دينه فقد ردّ كتاب الله ، ومن ردّ كتاب الله فهو كافر »([59]) .

ومن الواضح أنّ أهم ما ينبغي بيانه في أمر الامامة التي بها كمال الدين وتمام النعمة ، بل هي التي عبّر عنها القرآن الكريم : بقوله: (يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)([60]) ، بعد أن بيّن (صلى الله عليه وآله) دوامها وعدم انقطاعها ، هو بيان عددهم وتعيين أشخاصهم .

وهذا ما نحاول الوقوف عليه في الابحاث اللاحقة .

ذكر المحقّق آية الله الصافي في كتابه القيّم (منتخب الاثر) أنّ الروايات التي ذكرت أنّ الخلفاء من بعد النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) هم اثنا عشر ، قد تصل إلى ما يتجاوز (270 رواية) من طرق الفريقين([61]) .

ولعلّ العدد أكثر من ذلك بكثير ، كما ورد في « معجم أحاديث الامام المهدي » أنّ : « مصادر حديث أنّ الائمّة بعد النبي (صلى الله عليه وآله) اثنا عشر ، وأنّهم من قريش أو من أهل البيت (عليهم السلام) كثيرة ، وقد أفرد لها بعضهم كتيّباً خاصّاً ، وقد جمعناها فرأيناها تبلغ مجلّداً كاملاً ، لذلك اخترنا منها هذه النماذج فقط ، وقد نوفّق لاكمال تحقيقها من مصادر الفريقين ونشرها مستقلّة »([62]) .

وكنموذج على ذلك فقد خرّج مضمون هذا الحديث كلّ من ، صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، ومسند أحمد ، وسنن الترمذي ، وسنن أبي داود ، والمعجم الكبير للطبراني ، وحلية الاولياء ، ومستدرك الحاكم ، وصحيح مسلم بشرح النووي ، ومشكاة المصابيح ، والسلسلة الصحيحة للالباني ، وعون المعبود فى شرح سنن أبي داود ، والصواعق المحرقة ، وتاريخ الخلفاء ، وكنز العمّال ، وغيرهم كثير([63]) .

ومن هذه الروايات : أخرج البخاري بسنده عن جابر بن سمرة قال : سمعت النبي (صلى الله عليه وآله) يقول : « يكون اثنا عشر أميراً ـ فقال كلمة لم أسمعها ـ فقال أبي : إنّه قال : كلّهم من قريش »([64]) .

وفي صحيح مسلم عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « لا يزال الدين قائماً حتّى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش »([65]) .

ويقول أحمد بن حنبل في مسنده عن مسروق ، قال : كنّا جلوس عند عبدالله بن مسعود وهو يقرأ القرآن ، فقال له رجل : يا أبا عبدالرحمن ! هل سألتم رسول الله (صلى الله عليه وآله) كم يملك هذه الامّة من خليفة ؟ فقال عبدالله : ما سألني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك ، ثمّ قال : نعم ، ولقد سألنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فقال : « اثني عشر كعدّة نقباء بني إسرائيل »([66]) .

هذا بالاضافة إلى عشرات المصادر الشيعيّة .

خصائص هذه الروايات:

تمتاز هذه الروايات التي ذُكرت بهذه الكيفيّة ، وهذا العدد من الاسانيد والطرق من الصدر الاوّل إلى يومنا هذا ، بمجموعة من الخصوصيّات هي :

الخصوصيّة الاولى : أنّ هذه الروايات لا يمكن لاحد أن يتهم أتباع أهل البيت (عليهم السلام) بوضعها واختلاقها ، بعد أن آمنوا بأنّ عدد الائمّة اثنا عشر ، وذلك لورودها في أهم الصحاح والمسانيد السنيّة قبل ذكرها في المصادر الشيعيّة ، وأنّ جملة من طرقها تعد موثوقة لديهم حسب الموازين الرجاليّة عندهم ، مضافاً إلى أنّ هذا العدد ذُكر قبل أن يكتمل عدد الائمّة عند مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) .

وقد أشار إلى هذه الحقيقة جملة من المحقّقين ، منهم سيّدنا الشهيد الصدر (قدس سره) حيث يقول : « قد أحصى بعض المؤلّفين روايات هذا الحديث النبوي الشريف عن الائمّة أو الخلفاء أو الامراء بعده ، أنّهم اثنا عشر ، فبلغت الروايات أكثر من (270 رواية) ، مأخوذة من أشهر كتب الحديث عند الشيعة والسنّة ، بما في ذلك البخاري ، ومسلم

، والترمذي ، ومسند أحمد ، ومستدرك الحاكم على الصحيحين .

وليست الكثرة العدديّة لهذه الروايات هي الاساس الوحيد لقبولها ، بل هناك إضافة إلى ذلك مزايا وقرائن تبرهن على صحّتها ، فالبخاري الذي نقل هذا الحديث ، كان معاصراً للامام الجواد (عليه السلام) ، والامامين الهادي والعسكري (عليهما السلام) ، وفي ذلك مغزى كبير ، لانّه يبرهن على أنّ هذا الحديث قد سُجِّل عن النبي (صلى الله عليه وآله) قبل أن يتحقّق مضمونه ، وتكتمل فكرة الائمّة الاثني عشر فعلاً ، وهذا يعني أنّه لا يوجد أي مجال للشك في أن يكون نقل الحديث متأثّراً بالواقع الامامي الاثني عشري وانعكاساً له ، لانّ الاحاديث المزيّفة التي تنسب إلى النبي (صلى الله عليه وآله) ، هي انعكاسات أو تبريرات لواقع متأخّر زمنيّاً ، لا تسبق في ظهورها وتسجيلها في كتب الحديث ، ذلك الواقع الذي يشكّل انعكاساً له .

فمادمنا قد ملكنا الدليل المادّي على أنّ الحديث المذكور سبق التسلسل التاريخي للائمّة الاثني عشر ، وضبط في كتب الحديث قبل تكامل الواقع الامامي الاثني عشري ، أمكننا أن نتأكّد من أنّ هذا الحديث ليس انعكاساً لواقع ، وإنّما هو تعبير عن حقيقة ربانيّة نطق بها من لا ينطق عن الهوى ، فقال : إنّ الخلفاء بعدي اثنا عشر ، وجاء الواقع الامامي الاثني عشري ابتداءً من الامام علي (عليه السلام) وانتهاءً بالمهدي ليكون التطبيق الوحيد المعقول لذلك الحديث النبوي الشريف »([67]) .

الخصوصيّة الثانية : أنّ عدداً كبيراً من هذه الروايات من طرق الفريقين شبّهت هؤلاء الائمّة والخلفاء ، بأنّهم كنقباء بني إسرائيل ، كما في رواية أحمد ، والحاكم النيسابوري ، وغيرهما .

أخرج أحمد عن مسروق قال : كنّا جلوس عند عبدالله بن مسعود ، يقرئنا القرآن ، فسأله رجل ، فقال : يا أبا عبدالرحمن ، هل سألتم رسول الله (صلى الله عليه وآله) كم يملك هذه الامّة من خليفة ، فقال عبدالله : ما سألني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك ، ثمّ قال : نعم ، ولقد سألنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال : « اثني عشر كعدّة نقباء بني إسرائيل »([68]) .

وفي رواية أخرى لابن مسعود ، قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : «يكون بعدي من الخلفاء عدّة أصحاب موسى»([69]).

وقد ورد في التراث الشيعي عشرات الروايات التي تؤكّد الحقيقة السابقة ، وشبهتهم بأنّهم عدّة نقباء بني إسرائيل أيضاً ، يمكن الرجوع إليها في معجم أحاديث الامام المهدي([70]) .

ومقتضى هذا التشبيه كما يقول أستاذنا السيّد محمّد تقي الحكيم ، أن يكون هؤلاء الامراء معيّنون بالنص ، وذلك لقوله تعالى : (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَ ءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا)([71]) ، وعلى هذا الاساس فلا يمكن الوقوف على هؤلاء الخلفاء والائمّة من خلال اختيار الامّة ، أو انتخاب أهل الحلّ والعقد لهم ، بل لابدّ من الرجوع إلى من لا ينطق عن الهوى ، للتعرّف عليهم والوقوف على أشخاصهم .

الخصوصيّة الثالثة : أنّ هذه الروايات افترضت لهم البقاء ما بقي الدين الاسلامي ، أو حتّى تقوم الساعة ، كما هو مقتضى هذه الرواية التي جاءت في مسند أحمد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يزال الدين قائماً حتّى يكون اثنا عشر خليفة من قريش»([72]).

وأصرح من ذلك روايته الاخرى ، عن عبدالله بن عمر ، قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « لايزال الامر في قريش ما بقي من الناس اثنان ، قال : وحرّك إصبعيه يلويهما هكذا »([73]) .

الخصوصيّة الرابعة : أنّ هذه الروايات جميعاً أكّدت أنّ هؤلاء الخلفاء من قريش ، بالاضافة إلى أنّ هناك عدداً كبيراً من الروايات ذكرت خصائص أخرى لهؤلاء الخلفاء والائمّة ، إلاّ أنّها لم تأتِ في مصادر التراث السنّي ، ولعلّنا نوفّق للاشارة إليها بعد ذلك .

لكن يبقى هناك تساؤل ملفت للنظر ، هو أنّه بحسب الروايات التي وردت في الصحاح والمسانيد السنيّة ، أنّ الامّة سكتت ولم تستوضح من النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) مَنْ هم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر ؟ خصوصاً وأنّ النبي الاعظم ، في مواضع متفرّقة وأماكن مختلفة كان يؤكّد هذه الحقيقة ، بالنحو الذي لم تدع مجالاً للمحقّق المنصف ، أن يشكك في مضمون هذه الروايات ، وإن حاول ابن تيميّة التشكيك في ذلك كما هي عادته في مثل هذه المواضع ، حيث قال بعد قول العلاّمة الحلّي في « منهاج الكرامة » (ولم يجعلوا الائمة محصورين في عدد معين) : « فهذا حق ، وذلك أن الله تعالى قال : (يَاَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَْمْرِ مِنكُمْ) ولم يوقّتهم بعدد معين » وكذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) في الاحاديث الثابتة عنه المستَفيضة ، لم يوقت ولاة الامر في عدد معين »([74])، وتبعه بعض الكتّاب المعاصرين .

إلا أن المحققين من أعلام القوم لما لم يجدوا طريقاً لردّ هذه الاحاديث الكثيرة اضطربوا في بيان المراد منها .

فبعضهم أظهر العجز عن فهم معناها ، قال ابن العَربي المالكي : « ولم أعلم للحديث معنى » ([75]) .

وقال ابن الجوزي : «قد أطلت البحث عن معنى هذا الحديث، وتطلّبت مظانّه ، وسألت عنه ، فلم أقع على المقصود »([76]) .

وذهب آخرون إلى توجيهها بما يتلاءم مع الواقع التاريخي الذي وُجد بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) منهم ابن تيميّة في منهاج السنة ، حيث قال : « وفي الصحيحين عن جابر بن سمرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يزال هذا الامر عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش ، ولفظ البخاري اثني عشر أميراً ، وفي لفظ : لا يزال أمر الناس ماضياً ولهم اثنا عشر رجلاً ، وفي لفظ : لا يزال الاسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش . وهكذا كان .

فكان الخلفاء : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي، ثم تولى من اجتمع الناس عليه وصار له عزّ ومنعة ، معاوية ، وابنه يزيد ، ثم عبد الملك ، وأولاده الاربعة ، وبينهم عمر بن عبد العزيز ، وبعد ذلك حصل في دولة الاسلام ما هو باق إلى الآن .

فإن بني أمية تولّوا على جميع أرض الاسلام ، وكانت الدولة في زمنهم عزيزة .

وأعظم ما نقمه الناس على بني أمية شيئان : أحدهما : تكلّمهم في علي .

والثاني : تأخير الصلاة عن وقتها .

وهؤلاء الاثنا عشر خليفة هم المذكورون في التوارة حيث قال في بشارته لاسماعيل : وسيلد اثني عشر عظيماً »([77]).

ولست بصد مناقشة هذا الكلام ، لان هذه الدراسة ليست موضوعة لهذا الغرض ، وإنما هدفي من نقل هذه العبارة هو بيان رأي هذا الرجل في يزيد وأولاد عبد الملك بن مروان ، حيث يعتقد أن أمثال هؤلاء هم الذين بشّر الله إسماعيل (عليه السلام) ، في التوراة ، بأنهم العظماء الذين سيولدون له ! !

أما أمثال الحسن والحسين (عليهما السلام) اللذين هما سيدا شباب أهل الجنة ، وريحانتا رسول الله ـ بنص الفريقين من علماء المسلمين ـ فليسوا من أولئك العظماء الذين بُشِّر بهم إسماعيل (عليه السلام) بل حتى أن الامام علي (عليه السلام) ليس من المقطوع به أنه من الخلفاء الاثني عشر ، كما يعتقد ابن تيمية .

يقول : « وأما مروان وابن الزبير فلم يكن لواحد منهما ولاية عامة ، بل كان زمنه زمن فتنة ، فلم يحصل فيها من عز الاسلام وجهاد أعدائه ، ما يتناوله الحديث ، ولهذا جعل طائفة من الناس خلافة علي من هذا الباب ، وقالوا : لم تثبت بنص ولا إجماع » .

ويقول في موضع آخر : « ومن ظنّ أن هؤلاء الاثني عشر هم الذين تعتقد الرافضة بإمامتهم ، فهو في غاية الجهل ، فإن هؤلاء ليس فيهم من كان له سيف إلا علي بن أبي طالب ، ومع هذا فلم يتمكّن في خلافته من غزو الكفّار ولا فتح مدينة ، ولا قتل كافراً ، بل كان المسلمون قد اشتغل بعضهم بقتال بعض ... فأي عز للاسلام في هذا ، والسيف يعمل في المسلمين ، وعدوهم قد طمع فيهم ونال منهم »([78]).

إذن يعتقد ابن تيمية أن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ليسوا مصداقاً للعظماء الذين بُشِّر بهم إسماعيل (عليه السلام) وإنما في رأيه ، أن معاوية الذي سنّ سبَّ الامام علي (عليه السلام) على منابر المسلمين لعشرات الاعوام ، هو المستحق لان يكون أحد مصاديق الخلفاء الاثني عشر .

يحدّثنا المدائني في كتاب الاحداث ، أن معاوية كتب إلى عمّاله نسخة واحدة ، أن برئت الذمّة ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته .

وقام الخطباء بعد ذلك بالنيل من عليّ وأهل بيته ، حتى أدّت هذه الحالة في الشام كما يقول ابن عساكر : « أن تختم مجالس الوعظ بشتم علي عليه السلام »([79]).

وكذلك يرى أن يزيد الذي قتل الحسين (عليه السلام) وأباح المدينة وهدم الكعبة ، هو الذي يليق به أن يكون من العظماء الذين ذُكروا في التوراة .

يقول بعض المؤرخين المعاصرين : « فكانت باكورة عمله أن قتل الحسين ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسبى نساءه بصورة يذوب لها قلب كل إنسان ، مهما اختلفت ملته ونحلته ، فضلاً عن المسلم الذي يعرف الحسين ومنزلته من رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومكانته من الاسلام .

وفي السنة الثانية أباح مدينة رسول الله ، وأصبح جنده يجوسون خلال ديار الوحي ليفسدوا فيها ويهلكوا الحرث والنسل ، يتدفقون في شوارع ذلك البلد الطيب ، يهجمون على البيوت ، ليهتكوا أعراضاً ، ويسلبوا أموالاً ، وترى مخدرات ذلك البلد كأسراب القطا تتخطفها البزاة الجارحة ، أو كقطعان الغنم تتناهبها الذئاب الضارية فهن تحت تصرّف أولئك الوحوش ثلاثة أيام يفعلون ما شاءوا .

في السنة الثالثة هدم الكعبة .

ولعلها أبلغ أمنية لنفس الامويين ، ليجعلوا يوماً بيوم الهبل واللات والعزى .

هذا هو ولي عهد معاوية الذي عرف لياقته للحكم وصلاحيته للامر »([80]) .

ثم بعد هذا وذاك يرى ابن تيمية أن أولاد عبد الملك بن مروان هم الذين كان الاسلام في زمنهم عزيزاً ، ويشكر الله أن الخلافة وقعت بيد بني العباس ولم تقع بيد رافضي ، يقول : « ثم كان من نعم الله سبحانه ورحمته بالاسلام .

أن الدولة لما انتقلت إلى بني هاشم صارت في بني العباس، وإلا فلو تولّى ـ والعياذ بالله ـ رافضي يسبّ الخلفاء والسابقين الاولين لقلب الاسلام »([81]).

هذه هي عقيدة ابن تيمية في المراد من الخلفاء الذين عبّر عنهم الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) بقوله : « لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة » .

ولقد أجاد القندوزي الحنفي عندما أجاب عن مثل هذه الاقوال بقوله : « قال بعض المحققين : إن الاحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده صلى الله عليه وسلم اثني عشر ، قد اشتهرت من طرق كثيرة، فبشرح الزمان وتعريف الكون والمكان ، عُلم أن مراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حديثه هذا ، الائمة اثنا عشر من أهل بيته وعترته ، إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه ، لقلتهم عن اثني عشر ، ولا يمكن أن نحمله على الملوك الاموية لزيادتهم على اثني عشر ، ولظلمهم الفاحش إلا عمر بن عبد العزيز ، ولكونهم غير بني هاشم لان النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ قال : كلهم من بني هاشم ، في رواية عبد الملك بن جابر ، وإخفاء صوته (صلى الله عليه وآله) يرجّح هذا القول ; لانهم لا يحسنون خلافة بني هاشم »([82]) .

من هنا نجد أن السيوطي ، بعد أن أورد ما قاله العلماء في هذه الاحاديث المشكلة ، خرج برأي غريب ، حيث قال : « وعلى هذا فقد وجد من الاثني عشر ، الخلفاء الاربعة ، والحسن ، ومعاوية وابن الزبير ، و عمر بن عبد العزيز ، وهؤلاء ثمانية ، ويحتمل أن يضم إليهم المهدي من العباسيين ، لانه فيهم كعمر بن عبد العزيز في بني أمية ، وكذلك الظاهر لما أوتيه من العدل ، وبقي الاثنان المنتظران ، أحدهما : المهدي لانه من أهل بيت محمد »([83]) .

ولم يبيّن المنتظر الثاني .

ورحم الله من قال في السيوطي : « إنه حاطب ليل » وما يقال عن السيوطي يقال عن ابن روزبهان في ردّه على العلامة الحلّي وهو يحاول توجيه هذه الاحاديث »([84]) .

ولنرجع إلى التساؤل الذي أثرناه ، وهو أنّه لماذا لم يسأل الاصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) من هم هؤلاء الخلفاء والائمّة ، وهنا توجد عدّة احتمالات :

الاوّل : أنّ الامّة لم تهتم بذلك ، رغم الاهتمام الخاص الذي أولاه الرسول الكريم لبيان هذه الحقيقة ، من خلال العشرات بل المئات من الروايات التي بيّنت أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) أشار إلى أنّ الخلفاء من بعده اثنا عشر ، وهذا الاحتمال لا يمكن قبوله ، لانّه طعن واضح في سيرة أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) ، حيث تؤكّد لنا الوقائع التأريخيّة ، أنّهم كانوا يهتمون بكلّ صغيرة وكبيرة من أمر هذا الدين بل كانوا يسألون عن أمور لا تهمهم لذا نزل قوله تعالى: (لاَ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)([85]).

الثاني : أنّهم سألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، ولكنّ الرسول لم يهتم ببيان ذلك لهم ، وهذا أيضاً لا يمكن قبوله

، لانّه خلاف ما صرّح به القرآن بالنسبة إلى رسوله الامين ، حيث قال : (وَ مَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِين)([86]) ، بل هو مأمور ببيان ما نزل إليه من الامر الالهي (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)([87]) خصوصاً ، أنّ ذلك الامر يرتبط بكمال الدين ، بل بأساسه ، لقوله تعالى : (وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)([88]) .

الثالث : أنّ الاصحاب سألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وبيّنه لهم ، من خلال بيانات متعدّدة وفي مواقع مختلفة ، وبأساليب متنوعة لكن الاجهزة الحاكمة حالت دون ذلك ومنعت عن تدوين حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، بل أمرت بإحراق كل ما كتب في هذا المجال ، ونهت عن تدوين ما هو في صدور الاصحاب ، وليس غريباً أن تقف السلطات التي أرادت أن تتسلّط على رقاب الامّة باسم خلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتمنع من هو منها كالقطب من الرحى ، دون نشر مثل هذه الاحاديث التي بيّنت أحقيّة الامام علي وأولاده بالخلافة والامامة من بعده ، ومن هنا نستطيع الوقوف على جواب تساؤل طالما أشار إليه جملة من أعلام السنّة المتقدّمين ، وردّدته بعض الاقلام المعاصرة ، وهو أنّه لو كانت الخلافة والامامة لعلي وأولاده من الامور التي أكّدها وركز عليها النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) فلماذا أصيبت بمثل هذه الضبابيّة والابهام ، وصارت منشأ للنقض والابرام .

والجواب: هو أنّ السلطات الحاكمة وأجهزتها الاعلاميّة ، كانت تعمل بكلّ ما وسعها من أجل طمس الحقائق التي لا ترتضيها ، ولا تصب في مصالحها ، كما نجد ذلك واضحاً بالنسبة إلى الامام علي (عليه السلام) ، وهو أقرب الصحابة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) علماً وعملاً ، حيث سُنَّ لعنه وشتمه على منابر المسلمين ولعشرات السنين ، ولم يمر على رحلة الرسول الاعظم ، إلاّ ثلاثين عاماً ، فإذا كان بمقدور هذه الاجهزة كتمان الحقيقة وتشويهها ، وإيصال الامّة إلى هذا المستوى من الجهل بأقرب الصحابة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فإنّ بإمكانها أيضاً أن تخفي الحقيقة المتعلّقة بالائمّة الاحد عشر ، بحيث تصبح تلك الحقائق المسلّمة قرآنيّاً غير واضحة في أذهان المسلمين بصورة عامّة ، فيقع الاختلاف بينهم لا محالة .

ولكن (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ)([89]) و(يُرِيدُونَ لِيُطْفُِوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَفِرُونَ)([90]) .

الهوامش

([54]) النجم : 3 - 4 .

([55]) الحاقّة : 44 - 46 .

([56]) الحشر : 7 .

([57]) النحل : 44 .

([58]) المائدة : 3 .

([59]) الاصول من الكافي ، ج 1 ، ص 199 ، باب نادر جامع في فضل الامام وصفاته .

([60]) المائدة : 67 .

([61]) منتخب الاثر في الامام الثاني عشر ، الطبعة الثالثة ، ص 10 .

([62]) معجم أحاديث الامام المهدي (عجّل الله فرجه) ، ج 2 ، ص 265 ، تأليف ونشر مؤسسة المعارف الاسلاميّة .

([63]) صحيح البخاري : كتاب الاحكام ، باب الاستخلاف ، ج 4 ، ص 164 ; صحيح مسلم ، ج 2 ، ص 119 ، كتاب الامارة ، أخرجه بتسعة طرق ; مسند أحمد ، ج 5 ، ص 90 و93 و97 و106 و107 ; سنن الترمذي ، ج4 ، ص 501 ; سنن أبي داود ، ج 4 ، ص 106 ، ح 7279 و4281 ; المعجم الكبير للطبراني ، ج 2 ، ص 238 ، ح1996 ; حلية الاولياء ، ج 4 ، ص 332 ; مستدرك الحاكم ، ج 3 ، ص 618 ; صحيح مسلم بشرح النووي ، ج12 ، ص 201 ; مشكاة المصابيح للتبريزي ، ج 3 ، ص 327 ، ح 5983 ; السلسلة الصحيحة للالباني : ح376 ; عون المعبود في شرح سنن أبي داود ، ج 11 ، ص 262 ، شرح الحديث 4259 ; الصواعق المحرقة ، ص12 ; تاريخ الخلفاء ، ص 10 ; كنز العمّال ، ج 13 ، ص 27 .

([64]) صحيح البخاري، ج4، ص164، كتاب الاحكام ، باب الاستخلاف .

([65]) صحيح مسلم ، ج 2 ، ص 119 ، باب الناس تبع لقريش ، أخرجه من تسعة طرق .

([66]) مسند أحمد ، ج 5 ، ص 90 .

([67]) بحث حول المهدي : آية الله السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر ، ص 54 ، معاونيّة الرئاسة للعلاقات الدوليّة في منظمة الاعلام الاسلامي .

([68]) مسند أحمد ، ج 5 ، ص 90 ; الصواعق المحرقة ، ص 12 ; تاريخ الخلفاء ، ص 10 .

([69]) كنز العمّال ، ج 13 ، ص 27 .

([70]) معجم أحاديث الامام المهدي ، ج 2 ، ص 262 .

([71]) المائدة : 12 .

([72]) مسند أحمد ، ج 5 ، ص 86 ; صحيح مسلم ، ج 6 ، ص 4 .

([73]) مسند أحمد ، ج 2 ، ص 29 .

([74]) منهاج السنة ، ابن تيميّة ، ج 3 ، ص 381 ، نقلاً عن دراسات في منهاج السنة لمعرفة ابن تيمية ، مدخل لشرح منهاج الكرامة ، تأليف السيد علي الحسيني الميلاني ، ص 390 .

([75]) عارضة الاحوذي في شرح الترمذي ، ج 9 ، ص 69 ، نقلاً عن دراسات في منهاج السنة ، ص 393 .

([76]) فتح الباري ، ج 13 ، ص 181 ، نقلاً عن دراسات في منهاج السنة ، ص 394

([77]) منهاج السنة ، ج 8 ، ص 238 ، نقلاً عن دراسات في منهاج السنة ، ص 394 .

([78]) المصدر السابق .

([79]) تاريخ ابن عساكر ، ج 3 ، ص 402 ، نقلاً عن : الامام الصادق والمذاهب الاربعة ، أسد حيدر ، دار الكتاب العربي، ج 1 ، ص 32 .

([80]) الامام الصادق والمذاهب الاربعة ، ج 1 ، ص 33 .

([81]) منهاج السنة ، ج 8 ، ص 238 ، نقلاً عن دراسات في منهاج السنة ، ص 394 .

([82]) ينابيع المودة ، ج 3 ، ص 105 ، باب 77 .

([83]) تاريخ الخلفاء ، ص 12 .

([84]) الاصول العامة للفقه المقارن ، ص 180 .

([85]) المائدة : 101 .

([86]) التكوير : 24 .

[87]) النحل : 44 .

([88]) المائدة : 67 .

([89]) الانفال : 30 .

([90]) الصف : 8 .

المحور الثالث

تعيين مصاديق الائمّة

الواقع أنّ الاحاديث التي أشارت إلى أنّ الخلفاء اثنا عشر ، عيّنت بنحو واضح ، من هم أولئك الخلفاء ؟ وهذا هو مقتضى القاعدة في المسألة ، لانّه من الطبيعي عندما يصرّح الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) بأنّ خلفاءه من بعده اثنا عشر ، لابدّ أن يذكرهم مباشرة أو بعد السؤال على الاقل ، وهذا ما نجده واضحاً في التراث الشيعي الذي تكلّم عن هذه الحقيقة بجلاء ، ونحاول هنا الوقوف على بعض النماذج من هذه الروايات الكثيرة في المقام .

عن سلمان قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « الائمّة بعدي اثنا عشر ، ثمّ قال : كلّهم من قريش ، ثمّ يخرج قائمنا فيشفي صدور قوم مؤمنين ، ألا إنّهم أعلم منكم فلا تعلّموهم ، ألا إنّهم عترتي ولحمي ودمي ، ما بال أقوام يؤذونني فيهم ، لا أنالهم الله شفاعتي »([91]) .

وعن أبي ذر ، قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول : « من أحبّني وأهل بيتي ، كنّا نحن وهو كهاتين ، وأشار بالسبّابة والوسطى ، ثمّ قال : أخي خير الاوصياء وسبطي خير الاسباط ، وسوف يخرج الله تبارك وتعالى من صلب الحسين أئمّة أبرار ، ومنّا مهدي هذه الامّة ، قلت : يا رسول الله ، وكم الائمّة بعدك ؟ قال : عدد نقباء بني إسرائيل »([92]) .

وبسند آخر ، عن أبي ذر (رحمه الله) ، عن النبي (صلى الله عليه وآله) في حديث طويل ، وفيه : « ... وبعلها سيّد الوصيين وابنيها الحسين والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة ، وإنّهم إمامان إن قاما أو قعدا ، وأبوهما خيرٌ منهما ، وسوف يخرج من صلب الحسين تسعة من الائمّة معصومون قوّامون بالقسط ، ومنّا مهديّ هذه الامّة .

قال : قلت : يا رسول الله فكم الائمّة بعدك ؟ قال : عدد نقباء بني إسرائيل »([93]) .

وعن أيّوب الانصاري ، قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول : « أنا سيّد الانبياء ، وعلي سيّد الاوصياء ، وسبطاي خير الاسباط ، ومنّا الائمّة المعصومون من صلب الحسين ، ومنّا مهديّ هذه الامّة .

فقام إليه أعرابي فقال : يا رسول الله ، كم الائمّة من بعدك ؟ قال : عدد الاسباط وحواريي عيسى ونقباء بني إسرائيل »([94]) .

وهذا الذي ذكرته الاحاديث ينسجم تماماً مع الخصوصيّات الاربع التي استفدناها في البحث السابق ، وهي أنّهم اثنا عشر ، وأنّهم معيّنون بالنص ، وموجودون ما بقي الدين قائماً ، وكلّهم من قريش ، وبهذا تجد تلك الروايات تفسيرها الصحيح ، بلا حاجة إلى ما تكلّفه السيوطي وغيره في بيان المراد منها .

على أنّنا في غنى عن هذه الروايات وغيرها ، بحديث الثقلين نفسه ، فهو الذي ترك بأيدينا الضابط الذي على أساسه يمكن معرفة خلفائه (صلى الله عليه وآله) ، حيث أنّه جعل المقياس فيهم هو عدم افتراقهم عن القرآن الكريم حتّى يردا عليه الحوض ، إذن فلنمسك بأيدينا هذا المقياس ونسبر به الواقع السلوكي لجميع من تسمّوا بالائمّة والخلفاء بعده (صلى الله عليه وآله) ، لنقف على الاجدر بانطباق هذا الضابط عليه .

ومن هنا لابدّ من الوقوف على بعض دلالات هذا النص المتواتر بين المسلمين :

1 ـ دلالته على عصمة العترة

وبيان ذلك يتم من خلال النقاط التالية :

أوّلاً : « اقترانهم بالكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتصريحه بعدم افتراقهم عنه ، ومن البديهي أنّ صدور أيّة مخالفة للشريعة سواء كانت عن عمد أو سهو ، أم غفلة ، تعتبر افتراقاً عن القرآن في هذا الحال ، وإن لم يتحقّق انطباق عنوان المعصية عليها أحياناً ، كما في الغافل والساهي ، والمدار في صدق عنوان الافتراق عنه ، عدم مصاحبته لعدم التقيّد بأحكامه ، وإن كان معذوراً في ذلك ، فيقال فلان مثلاً ، افترق عن الكتاب وكان معذوراً في افتراقه عنه ، والحديث صريح في عدم افتراقهما حتّى يردا الحوض .

ثانياً : على أنّ تجويز الافتراق عليهم بمخالفة الكتاب وصدور الذنب منهم ، تجويز للكذب على رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذي أخبر عن الله عزّ وجلّ بعدم وقوع افتراقهما ، وتجويز الكذب عليه متعمّداً في مقام التبليغ والاخبار عن الله في الاحكام وما يرجع إليها من موضوعاتها وعللها ، مناف لافتراض العصمة في التبليغ ، وهي ممّا أجمعت عليها كلمة المسلمين على الاطلاق ، حتّى نفاة العصمة بقول مطلق .

يقول الشوكاني بعد استعراضه لمختلف مبانيهم في عصمة الانبياء : « وهكذا وقع الاجماع على عصمتهم بعد النبوّة ، من تعمّد الكذب في الاحكام الشرعيّة ، لدلالة المعجزة على صدقهم ، وأمّا الكذب غلطاً ، فمنعه الجمهور وجوّزه القاضي أبو بكر »([95]) .

« ولا إشكال في أنّ الغلط لا يتأتّى في هذا الحديث لاصرار النبي (صلى الله عليه وآله) على تبليغه في أكثر من موضع ، وإلزام الناس بمؤدّاه ، والغلط لا يتكرر عادة »([96]) .

2 ـ دلالته على تميزهم بالعلم بكل ما يتصل بالشريعة وغيرها:

كما يدل على ذلك اقترانهم بالكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، لقوله تعالى : (مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَبِ مِن شَىْءٍ) ([97]) ، وقوله تعالى : (وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَبَ تِبْيَنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ)([98]) .

لذا ورد عنه (صلى الله عليه وآله) : « لا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم »([99]).

يقول ابن حجر : تنبيه : « سمّى رسول الله (صلى الله عليه وآله) القرآن وعترته ، وهي بالمثنّاة الفوقيّة ، الاهل والنسل والرهط الادنون ، الثقلين ، لانّ الثقل كلّ نفيس خطير مصون ، وهذان كذلك ، إذ كلّ منهما معدن العلوم اللدنيّة ، والاسرار والحكم العليّة ، والاحكام الشرعيّة ، ولذا حثّ (صلى الله عليه وآله) على الاقتداء والتمسّك بهم والتعلّم منهم ، وقال : « الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت » ، وقيل : سمّيا ثقلين لثقل وجوب رعاية حقوقهما .

ثمّ إنّ الذي وقع الحث عليهم منه ، إنّما هم العارفون بكتاب الله وسنّة رسوله ، إذ هم الذين لا يفارقون الكتاب إلى الحوض ، ويؤيّده الخبر السابق ، « ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم » ، وتميّزوا بذلك عن بقيّة العلماء ، لانّ الله أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ، وشرّفهم بالكرامات الباهرة ، والمزايا المتكاثرة ، وقد مرّ بعضها »([100]) .

إذن ، فهذا النص المبارك يثبّت لنا ضرورة عصمة العترة ، مضافاً إلى عشرات الادلّة القرآنيّة والروائيّة التي لا مجال للوقوف عليها في هذه العجالة .

نعم ، قد يقال : إنّ العترة عنوان عام يمكن أن يشمل غير الائمّة الاثني عشر ، الذين تمسّك بهم الشيعة الاماميّة ، لانّه كما ثبت في محلّه ، أنّ القضيّة لا تثبت موضوعها ، ومن هنا لا يمكن التمسّك بهذا الحديث وما يشابهه لتعيين مصاديق أحاديث "الخلفاء اثنا عشر" ; لذا أشكل أبو زهرة في هذا الحديث بقوله : « وبعد التسليم بصحّة اللفظ نقول : بأنّه لا يقطع ، بل لا يعيّن من ذكروهم من الائمّة الستّة المتفق عليهم عند الامامية الفاطميين ، وهو لا يعيّن أولاد الحسين دون أولاد الحسن ، كما لا يعيّن واحداً من هؤلاء بهذا الترتيب »([101]) .

ولكن هناك طرق عديدة من خلالها يمكن تعيين مصاديق العترة وأهل البيت نعرضها بإيجاز :

الطريق الاوّل : وهو الطريق المباشر لتعيينهم من خلال الروايات المنقولة عن النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) ، والتي تنص عليهم بأسمائهم .

منها : ما ذكره في « ينابيع المودّة » عن كتاب « فرائد السمطين » بسنده عن مجاهد ، عن ابن عبّاس ، قال : قدِم يهودي يقال له نعثل ، فقال : يا محمّد أسألك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين ، فإن أجبتني عنها أسلمت على يديك .

قال : سل يا أبا عمارة .

فقال : يا محمّد ، صف لي ربّك .

فقال (صلى الله عليه وآله) : « لا يوصف إلاّ بما وصف به نفسه ، وكيف يوصف الخالق الذي تعجز العقول أن تدركه ، والاوهام أن تناله ، والخطرات أن تجده ، والابصار أن تحيط به ، جلّ وعلا عمّا يصفه الواصفون...» ـ إلى أن قال السائل ـ : صدقت .

فأخبرني عن وصيّك من هو ؟ فما من نبي إلاّ وله وصي ، وإنّ نبيّنا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون ، فقال (صلى الله عليه وآله) : «إنّ وصيّي علي بن أبي طالب، وبعده سبطاي الحسن والحسين ، تتلوه تسعة أئمّة من صلب الحسين»، قال : يا محمّد ، فسمّهم لي ، قال : «إذا مضى الحسين فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه محمّد ، فإذا مضى محمّد فابنه جعفر ، فإذا مضى جعفر فابنه موسى ، فإذا مضى موسى فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه محمّد ، فإذا مضى محمّد فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه الحسن ، فإذا مضى الحسن فابنه الحجّة محمّد المهدي »([102]) .

ومنها عن الصادق (عليه السلام) ، عن أبيه ، عن آبائه (عليهم السلام) ، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) ، قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « لمّا أسري بي إلى السماء ، أوحى إليَّ ربّي جلّ جلاله ، فقال : يا محمّد اطلعتُ على الارض اطلاعة ، فاخترتك منها ، فجعلتك نبيّاً ، وشققت لك من اسمي اسماً ، فأنا المحمود ، وأنت محمّد ، ثمّ اطّلعتُ الثانية ، فاخترتُ منها عليّاً ، وجعلته وصيّك وخليفتك ، وزوج ابنتك ، وأبا ذريّتك ، وشققت له اسماً من أسمائي ، فأنا العلي الاعلى وهو علي ، وخلقت فاطمة والحسن والحسين من نوركما ، ثمّ عرضتُ ولايتهم على الملائكة ، فمن قبلها كان عندي من المقرّبين ...

إلى أن تقول الرواية : يا محمّد تحب أن تراهم ؟ قلت : نعم يا ربّ ، فقال عزّ وجلّ : ارفع رأسك ، فرفعت رأسي ، وإذ أنا بأنوار علي وفاطمة والحسن والحسين ، وعلي بن الحسين ، ومحمّد بن علي ، وجعفر بن محمّد ، وموسى بن

جعفر ، وعلي بن موسى ، ومحمّد بن علي ، وعلي بن محمّد ، والحسن بن علي ، ومحمّد بن الحسن القائم في وسطهم كأنّه كوكب دريّ ... إلخ »([103]).

وروايات المعراج التي تحدّثت عن هذه الحقيقة كثيرة جدّاً .

وعن جابر بن يزيد الجعفي ، قال : سمعت جابر بن عبد الله الانصاري يقول : « لما أنزل الله عز وجل على نبيّه محمد (صلى الله عليه وآله) : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَْمْرِ مِنكُمْ) النساء : 59 قلت : يا رسول الله ، عرفنا الله ورسوله ، فمن أولو الامر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك ؟ فقال (صلى الله عليه وآله) : « هم خلفائي يا جابر ، وأئمة المسلمين من بعدي ، أولهم علي بن أبي طالب ، ثم الحسن ، ثم الحسين ، ثم علي بن الحسين ، ثم محمد بن علي المعروف]في التوراة[بالباقر ، وستدركه يا جابر فإذا لقيته ، فأقرئه مني السلام ، ثم الصادق جعفر بن محمد ، ثم موسى بن جعفر ، ثم علي بن موسى ، ثم محمد بن علي ، ثم علي بن محمد ، ثم الحسن بن علي ، ثم سميّي وكنيّي حجة الله في أرضه ، وبقيته في عباده ، ابن الحسن بن علي ، ذاك الذي يفتح الله (تعالى ذكره) على يديه مشارق الارض ومغاربها ، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه ، غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للايمان .

قال جابر: فقلت : يا رسول الله، فهل ينتفع الشيعة به في غيبته؟

فقال :]إي[والذي بعثني]بالنبوة[يستضيئون بنوره ، وينتفعون بولايته في غيبته ، كانتفاع الناس بالشمس وإن تجللها سحاب .

يا جابر هذا من مكنون سِرّ الله ، ومخزون علم الله ، فاكتمه إلا عن أهله .

قال جابر بن يزيد : فدخل جابر بن عبد الله الانصاري على علي بن الحسين (صلوات الله وسلامه عليه) ، فينما هو يحدّثه ، إذ خرج محمد بن علي الباقر عليه من عند نسائه ، وعلى رأسه ذؤابة وهو غلام ، فلمّا بصر به جابر ارتعدت فرائصه ، وقامت كل شعرة على بدنه ، ونظر اليه مليّاً ، ثم قال له : يا غلام أقبل .

فأقبل .

ثم قال له : أدبر .

فأدبر ، فقال جابر : شمائل رسول الله وربّ الكعبة .

ثم قام فدنا منه ، وقال له : ما اسمك يا غلام ؟

فقال : محمد .

قال : ابن من ؟

قال : ابن علي بن الحسين .

قال : يا بني فدتك نفسي ، فأنت إذاً الباقر ؟

قال : نعم .

قال (صلوات الله عليه) : فأبلغني ما حمّلك رسول الله صلى الله عليه وآله ؟

فقال جابر : يا مولاي ، إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بشَّرني بالبقاء إلى أن ألقاك ، وقال لي : إذ لقيته فأقرئه

مني السلام .

فرسول الله يا مولاي يقرئك السلام .

فقال : أبو جعفر (صلوات الله عليه) : يا جابر ، على رسول الله ما دامت السموات والارض ، وعليك يا جابر كما بلغت ، السلام .

فكان جابر بعد ذلك يختلف إليه ويتعلّم منه »([104]) .

وقد أحصى الصافي الكلبايكاني في كتابه (منتخب الاثر) أكثر من خمسين رواية في هذا المجال ، وقال بعد ذلك : « النصوص الواردة في ساداتنا الائمّة الاثني عشر ، بلغت في الكثرة حدّاً ، لا يسعه مثل هذا الكتاب ، وكتب أصحابنا في الامامة وغيرها مشحونة بها ، واستقصاؤها صعب جدّاً »([105]) .

الطريق الثاني : وهو طريق نقلي أيضاً ، ولكنّه طولي ، ونعني به : أنّ النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) يعيّن بعضاً من هؤلاء الائمّة من بعده ، ثمّ يقوم كلّ واحد من هؤلاء بتعيين الخليفة الذي يأتي بعده وهكذا ، ومنها :

أ ـ الروايات الكثيرة التي نصّت على عصمة الامام علي (عليه السلام) وهي متواترة بين الفريقين ، مثل قوله (صلى الله عليه وآله) : « علي مع الحق والحق مع علي ، يدور معه حيثما دار »([106]) ، وقوله (صلى الله عليه وآله) لعمّار : « يا عمّار إن رأيت عليّاً قد سلك وادياً ، وسلك الناس وادياً آخر ، فاسلك مع علي ودع الناس ، إنّه لن يدلّك على ردى ، ولن يخرجك من هدى »([107]) .

من هنا قال أبو القاسم البجلي وتلامذته من المعتزلة : «لو نازع علي عقيب وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسلّ سيفه لحكمنا بهلاك كل من خالفه وتقدّم عليه ، كما حكمنا بهلاك من نازعه حين أظهر نفسه ، ولكنّه مالك الامر وصاحب الخلافة ، إذا طلبها وجب علينا القول بتفسيق من ينازعه فيها ، وإذا أمسك عنها وجب علينا القول بعدالة من أغضى له عليها ، وحكمه في ذلك حكم رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، لانّه قد ثبت عنه في الاخبار الصحيحة أنّه قال : علي مع الحق والحق مع علي ، يدور معه حيثما دار ، وقال له غير مرّة : حربك حربي وسلمك سلمي »([108]) .

لذا قال (عليه السلام) عن نفسه في مواضع متعدّدة من النهج : « إخواننا وأهل دعوتنا ، استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله ... وأنّ الكتاب لمعي ، ما فارقته مذ صحبته »([109]) .

ونعلم جميعاً أنّه صحب الكتاب وهو دون العاشرة .

وقال أيضاً : « أيّها الناس ، إنّي قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ الانبياء بها أممهم ، وأدّيت إليكم ما أدّت الاوصياء إلى من بعدهم ، وأدّبتكم بسوطي ، فلم تستقيموا ، وحدوتكم بالزواجر فلم تستوسقوا ، لله أنتم ، أتتوقعون إماماً غيري يطأ بكم الطريق ، ويرشدكم السبيل »([110]) .

وقال أيضاً : « والله ما كتمت وشمة ، ولا كذّبت كذبة »([111]) .

وقال أيضاً : « فاتقِ الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم ، فإنّك إن لم تفعل ثمّ أمكنني الله منكم لاعذرنّ إلى الله فيك ، ولاضربنّك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلاّ دخل النار »([112]) .

ثمّ إنّ الامام بعد أن ثبتت عصمته وإمامته من خلال تلك البيانات ، عرّف للامّة أهل بيت رسول الله (صلى الله عليه

وآله) ببيانات كثيرة في النهج ، نقف عند بعضها :

قال (عليه السلام) : « لا يقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله ، من هذه الامّة أحد ، ولا يستوي بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً ، هم أساس الدين ، وعماد اليقين ، إليهم يفيء الغالي ، وبهم يلحق التالي ، ولهم خصائص حق الولاية وفيهم الوصيّة والوراثة »([113]) .

ثمّ قال (عليه السلام) : « انظروا أهل بيت نبيّكم ، فالزموا سمتهم ، واتبعوا أثرهم ، فلن يخرجوكم من هدى ، ولن يعيدوكم في ردى ، فإن لبدوا فالبدوا ، وإن نهضوا فانهضوا ، ولا تسبقوهم فتضلّوا ، ولا تتأخّروا عنهم فتهلكوا »([114]) .

وقال أيضاً : « ألا أنّ مثل آل محمّد صلى الله عليه وآله كمثل نجوم السماء ، إذا خوى نجم ، طلع نجم ، فكأنّكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع ، وأراكم ما كنتم تأملون »([115]) .

وقال أيضاً : « فأين تذهبون ، وأنّى تؤفكون ، والاعلام قائمة ، والآيات واضحة ، والمنار منصوبة ، فأين يتاه بكم ، وكيف تعمهون ، وبينكم عترة نبيّكم ، وهم أزمّة الحقّ ، وأعلام الدين ، وألسنة الصدق ، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن ، وردوهم ورود الهيم العطاش »([116]) .

مع كلّ هذه النصوص وعشرات غيرها ، تأتي بعض الاقلام لتقول : إنّ أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) وعلى رأسهم الامام علي ابن أبي طالب ، لم يدّعوا لانفسهم العصمة ، ولم يقولوا ما قالته الشيعة عنهم ، وإنّما هي من اختلاقات فلاسفة الشيعة ومتكلّميهم ، والامر كما ترى .

ب ـ حديث الكساء : رواه الفريقان بطرق كثيرة وأساليب مختلفة ، وأماكن متعدّدة أشرنا إليها في كتاب العصمة([117]) .

ويمكن مراجعته تفصيلاً في كتاب آية التطهير([118]) .

وقد رواه مسلم في صحيحه ، والحاكم في مستدركه ، والبيهقي في سننه الكبرى ، وكلّ من الطبري وابن الاثير والسيوطي في تفاسيرهم ، وغيرهم كثير ، فقد ورد عن عائشة قالت : خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) غداةً وعليه مرط مرحّل من شعر أسود ، فجاء الحسن بن علي فأدخله ، ثمّ جاء الحسين ، فدخل معه ، ثمّ جاءت فاطمة ، فأدخلها ، ثمّ جاء علي فأدخله ، ثمّ قال : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »([119]) .

ويقول الآلوسي في هذا المجال : «وأخبار إدخاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليّاً وفاطمة وابنيهما ـ رضي الله تعالى عنهم ـ تحت الكساء ، وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « اللهمّ هؤلاء أهل بيتي » ودعائه لهم ، وعدم إدخال أم سلمة أكثر من أن تحصى ، وهي مخصّصة لعموم أهل البيت ، بأي معنى كان البيت ، فالمراد بهم من شملهم الكساء ، ولا يدخل فيهم أزواجه صلى الله عليه وسلم»([120]) .

وقال الرازي في تفسيره الكبير في ذيل قوله تعالى : (قُل لاَّ أَسْلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى) (الشورى 23) .

وأنا أقول : «آل محمّد (صلى الله عليه وسلم) هم الذين يؤول أمرهم إليه ، فكلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل ، كانوا هم الآل ، ولا شكّ أنّ فاطمة وعليّاً والحسن والحسين ، كان التعلّق بينهم وبين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أشدّ

التعلّقات ، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر ، فوجب أن يكونوا هم الآل .

وأمّا غيرهم ، فهل يدخلون تحت لفظ الآل ، فمختلف فيه»([121]) .

ويقول بعض الاعلام المعاصرين : «والذي يبدو أن الغرض من حصرهم تحت الكساء ، وتطبيق الآية ـ آية التطهير ـ عليهم ، ومنع حتّى أمّ سلمة من الدخول معهم ، كما ورد في روايات كثيرة ، هو التأكيد على اختصاصهم بالآية ، وقطع الطريق على كلّ ادعاء بشمولها لغيرهم .

وكأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قد خشى أن يستغل بعضهم قربه منه ، فيزعم شمول الآية له ، فحاول قطع السبيل عليهم بالتأكيد على تطبيقها على هؤلاء بالخصوص ، وتكرار هذا التطبيق ، حتّى تألفه الاسماع ، وتطمئن إليه القلوب»([122]) .

وهذا ما ورد في روايات عديدة أشار إليها السيوطي في الدر المنثور ، قال : «أخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء ـ رضي الله عنه ـ قال : حفظت من رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ثمانية أشهر بالمدينة ، ليس من مرّة يخرج إلى صلاة الغداة ، إلاّ أتى إلى باب علي ـ رضي الله عنه ـ فوضع يده على جنبتي الباب ، ثمّ قال : الصلاة الصلاة ، إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً »([123]) .

جـ ـ خروجه إلى المباهلة : روى مسلم في صحيحه ، عن عامر بن سعد بن أبي وقّاص ، عن أبيه ، قال : أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال : ما يمنعك أن تسب أبا تراب ؟ قال : أمّا ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فلن أسبّه ، لئن يكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليَّ من حمر النعم ، سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول حين خلفه في بعض مغازيه ، فقال له علي : يا رسول الله خلّفتني مع النساء والصبيان ؟ فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنّه لا نبي بعدي » ؟ ، وسمعته يقول يوم خيبر : « لاعطيّن الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ، ويحبّه الله ورسوله » ، قال : فتطاولنا لها ، فقال : « ادعوا لي عليّاً » ، فأتي به أرمد العين ، فبصق في عينه ، ودفع الراية إليه ، ففتح الله على يديه ، ولمّا نزلت هذه الآية : (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ)([124]) دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، وقال : « اللهمّ هؤلاء أهل بيتي » .

وروى ذلك الترمذي في صحيحه ، وأبو المؤيّد في كتاب فضائل علي ، وأبو نعيم في الحلية ، والحمويني الشافعي في فرائد السمطين .

وفي قوله (صلى الله عليه وآله) : « اللهمّ هؤلاء أهل بيتي » ، دلالة واضحة على أنّ هؤلاء لا غيرهم أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) وعترته ، لما ينطوي عليه الكلام من القصر والاختصاص .

وعلى كلّ حال ، فإنّ خلاصة هذا الطريق ، أنّه بعد أن تعيّن عدد من المعصومين من أهل البيت في الخطوة الاولى ، كما تمّ لعلي وفاطمة والحسن والحسين ، يأتي دور هؤلاء لتعيين كلّ سابق ، الامام اللاحق له .

وهذا ما نجده واضحاً في كثير من الروايات التي عيّن فيها كلّ سابق اللاحق له ونصّ عليه .

لا يقال : إنّ بعض هذه الروايات إمّا هي ضعيفة السند ، وعلى فرض صحّتها فهي آحاد ، لا يمكن الاعتماد عليها في الاصول الاعتقاديّة كمبحث الامامة .

فإنّه يقال : حتّى لو سلّمنا ما يقوله المستشكل ، فإنّه لا نعتمد على خصوص هذه الروايات لتعيين الائمّة من السجّاد (عليه السلام) إلى القائم (عليه السلام) ، وإنّما يضاف إليها عشرات الروايات التي تحدّثت عن أسمائهم جميعاً ، كما في الطريق الاوّل .

مضافاً إلى دليل آخر يمكن اعتماده في هذا المجال وهو الدليل التأريخي ، لاثبات إمامتهم ، وتوضيحه كما قرّره أستاذنا الحكيم في الاصول العامّة : «إنّ هؤلاء الائمّة الاثني عشر ، قد ادّعوا لانفسهم الامامة في عرض السلطات الزمنيّة ، واتخذوا من أنفسهم ، كما اتخذهم الملايين من أتباعهم قادة للمعارضة السلميّة للحكم القائم في زمنهم ، وكانوا عرضة للسجون والمراقبة ، وكثير منهم قُتِل بالسم ، وفيهم من استشهد في ميدان الجهاد على أيدي القائمين بالحكم ، وفي هؤلاء من تولّى الامامة وهو ابن عشرين سنة كالحسن العسكري (عليه السلام) ، بل فيهم من تولّى منصبها وهو ابن ثمان كالامامين الجواد والهادي(عليهما السلام) .

ومن المعروف عن الشيعة ادعاؤهم العصمة لائمتهم الملازمة لدعوى الاحاطة في شؤون الشريعة جميعها ، بل ادعوا الاعلميّة في جميع الشؤون وهم أنفسهم صرّحوا بذلك»([125]) .

ومن كلماتهم في ذلك :

1 ـ عن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث يقول : « نحن شجرة النبوّة ، ومحطّ الرسالة ، ومختلف الملائكة ، ومعادن العلم ، وينابيع الحكمة »([126]) .

2 ـ وعنه (عليه السلام) أيضاً : « أين الذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا ، كذباً وبغياً ، أن رفعنا الله ووضعهم ، وأعطانا وحرمهم ، وأدخلنا وأخرجهم ، بنا يُستعطى الهدى ، ويُستجلى العمى ، إنّ الائمّة من قريش ، غرسوا في هذا البطن من هاشم ، لا تصلح على سواهم ، ولا تصلح الولاة من غيرهم »([127]) .

3 ـ وقال الامام السجّاد (عليه السلام) : « وذهب آخرون إلى التقصير في أمرنا ، واحتجّوا بمتشابه القرآن ، فتأوّلوه بآرائهم ، واتهموا مأثور الخبر فينا ـ إلى أن قال ـ : وإلى من يفزع خلف هذه الامّة ، وقد دُرِست أعلام الملّة ، ودانت الامّة بالفرقة والاختلاف ، يكفّر بعضهم بعضاً ، والله تعالى يقول : (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْبَيِّنَتُ)([128]) فمن الموثوق به على إبلاغ الحجّة ، وتأويل الحكمة ، إلاّ أهل الكتاب ، وأبناء أئمّة الهدى ، ومصابيح الدجى ، الذين احتجّ الله بهم على عباده ، ولم يدع الخلق سدى من غير حجّة ، هل تعرفونهم أو تجدونهم ، إلاّ من فروع الشجرة المباركة ، وبقايا الصفوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً »([129]) .

4 ـ وقال الامام الصادق (عليه السلام) : « إنّ الله عزّ وجلّ أوضح بأئمّة الهدى من أهل بيت نبيّنا عن دينه ، وأبلج بهم عن سبيل منهاجه ، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه ـ إلى أن يقول ـ فلم يزل الله تبارك وتعالى يختارهم لخلقه ، من ولد الحسين عليه السلام من عقب كلّ إمام ، يصطفيهم لذلك ، ويجتبيهم ويرضى بهم لخلقه ، ويرتضيهم ، كلّ ما مضى منهم إمام نصب لخلقه من عقبه إماماً ، علماً بيّناً ، وهادياً نيّراً ، وإماماً قيّماً ، وحجّةً عالماً ، أئمّة من الله ، يهدون بالحقّ وبه يعدلون ، حجج الله ودعاته ورعاته على خلقه ...

جعلهم حياةً للآنام ، ومصابيح للظلام ، ومفاتيح للكلام ، ودعائم للاسلام ، جرت بذلك فيهم مقادير الله على محتومها »([130]) .

5 ـ وقال الامام الرضا (عليه السلام) : « إنّ الامامة هي منزلة الانبياء وإرث الاوصياء ، إنّ الامامة خلافة الله وخلافة الرسول(صلى الله عليه وآله) ، ومقام أمير المؤمنين عليه السلام ، وميراث الحسن والحسين عليهما السلام ، إنّ الامامة زمام الدين ، ونظام المسلمين ، وصلاح الدنيا ، وعزّ المؤمنين ، إنّ الامامة أس الاسلام النامي ، وفرعه السامي ـ إلى أن يقول ـ الامام واحد دهره ، لا يدانيه أحد ، ولا يعادله عالم ، ولا يوجد منه بدل ، ولا له مثل ولا نظير ، مخصوص بالفضل كلّه من غير طلب منه له ولا اكتساب ، بل اختصاص من المفضّل الوهّاب » « أتظنّون أنّ ذلك يوجد في غير آل الرسول صلى الله عليه وآله ، كذَّبتهم والله أنفسهم ، ومنّتهم الاباطيل ، فارتقوا مرتقاً صعباً دحضاً ، تزل إلى الحضيض أقدامهم ، راموا إقامة الامام بعقول حائرة بائرة ناقصة ، وآراء مضلّة ، فلم يزدادوا منه إلاّ بعداً ، ولقد راموا صعباً ، وقالوا إفكاً ، وضلّوا ضلالاً بعيداً ...» «وأنّ العبد إذا اختاره الله عزّ وجلّ لامور عباده ، شرح صدره لذلك وأودع قلبه ينابيع الحكمة ، وألهمه العلم إلهاماً ، فلم يعي بعده بجواب ، ولا يحير فيه عن الصواب ، فهو معصوم مؤيّد ، موفّق مسدّد ، قد أمن من الخطايا والزلل والعثار ، يخصّه الله بذلك ليكون حجّته على عباده ، وشاهده على خلقه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »([131]) .

ونظير هذه الاقوال كثير في كلام أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) .

من هنا قد يقال : «أما كان بوسع السلطة وهي تملك ما تملك من وسائل القمع ، أن تقضي على هذه الجبهة من المعارضة ذات الدعاوى العريضة من أيسر طرقها ، وذلك بتعريض أئمّتها لشيء من الامتحان العسير في بعض ما يملكه العصر من معارف ، وبخاصّة ما يتصل بغوامض الفقه والتشريع ، ليسقط دعواها في الاعلمية من الاساس ، أو يعرّضهم إلى شيء من الامتحان في الاخلاق والسلوك ليسقط ادعاؤهم العصمة .

وإذا كان في الكبار منهم عصمة وعلم ، نتيجة دربة ومعاة ، فما هو الشأن في ابن عشرين عاماً أو ابن ثمان ، فهل تملك الوسائل الطبيعيّة تعليلاً لتمثّلهم لذلك كلّه .

ولو كان هؤلاء الائمّة في زوايا أو تكايا ، وكانوا محجوبين عن الرأي العام كما هو الشأن في أئمّة الاسماعيليّة ، أو بعض الفرق الباطنيّة ، لكان لاضفاء الغموض والمناقبيّة على سلوكهم من الاتّباع مجال ، ولكن ما نصنع وهم مصحرون بأفكارهم وسلوكهم وواقعهم ، اتجاه السلطة وغيرها من خصومهم في الفكر ، والتأريخ حافل بمواقف السلطة منهم ومحاربتها لافكارهم ، وتعريضهم لمختلف وسائل الاغراء والاختبار ، ومع ذلك فقد حفل التأريخ بنتائج اختباراتهم المختلفة وسجّلها بإكبار .

ولقد حدّث المؤرّخون عن كثير من هذه المواقف المحرجة ، وبخاصّة مع الامام الجواد ، مستغلّين صغر سنّه عند تولّي الامامة .

وحتّى لو افترضنا سكوت التأريخ عن هذه الظاهرة ، فإنّ من غير الطبيعي أن لا تحدث أكثر من مرّة ، تبعاً لتكرر الحاجة إليها ، وبخاصّة أنّ المعارضة كانت على أشدّها في العصور العبّاسيّة .

وطريقة إعلان فضيحتهم بإحراج أئمّتهم فيما يدّعونه من علم واستقامة سلوك ، وإبراز سخفهم لاحتضانهم أئمّة بهذا السنّ وهذا المستوى لو أمكن ذلك ، أيسر بكثير من تعريض الامّة إلى حروب قد يكون الخليفة نفسه من ضحاياها ، أو تعريض هؤلاء الائمّة إلى السجون والمراقبة أو المجاملة أحياناً ...

وإذا كان للصدفة ـ وهي مستحيلة ـ مجالها في امتحان ما ، بالنسبة إلى شخص ما ، فليس لها موقع بالنسبة إليه في مختلف المجالات ، فضلاً عن تكرّرها بالنسبة إلى جميع الائمّة ، صغارهم وكبارهم ، كما يحدّث في ذلك التأريخ .

وأظنّ أنّ في هذه الاعتبارات التي ذكرناها مجتمعة ما يغني عن استيعاب كلّ ما ذكر في تشخيص المراد من أهل البيت .([132])»

الهوامش

([91]) كفاية الاثر ، ص 44 ، باب ما جاء عن سلمان الفارسي .

([92]) كفاية الاثر ، ص 35 ، باب ما جاء عن أبي ذر .

([93]) كفاية الاثر ، ص 36 - 38 .

([94]) كفاية الاثر ، ص 113 - 114 .

([95]) إرشاد الفحول ، ص 34 .

([96]) الاصول العامّة للفقه المقارن ، ص 166 .

([97]) الانعام : 38 .

([98]) النحل : 89 .

([99]) نوادر الاخبار فيما يتعلق بأصول الدين ، تأليف المحدث الكبير المولى محسن بن مرتضى الفيض الكاشاني ، تحقيق مهدي الانصاري ، مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنكي ، إيران ، ص127 .

([100]) الصواعق المحرقة ، مطبعة دار الطباعة المحمدية بمصر ، ص 149.

([101]) الامام الصادق ، ص 199 .

([102]) منتخب الاثر ، ص 97 ، الباب الثامن ، فيما يدل على الائمّة الاثني عشر بأسمائهم .

([103]) إكمال الدين ، ج 1 ، ص 252 ، باب 23 ، ح 2 .

([104]) إعلام الورى بأعلام الهدى ، أمين الاسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي ، صححه وعلق عليه : علي أكبر الغفاري ، ص 375 ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ; تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة ، تأليف المفسر الكبير السيد شرف الدين علي الحسيني الاسترابادي الغروي ، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة، ص 141 .

([105]) منتخب الاثر ، ص 145 .

([106]) شرح نهج البلاغة ، ج 18 ، ص 72 ، باب 77 .

([107]) كنز العمّال ، ج 11 ، ص 613 - 614 ، ح 32972 .

([108]) شرح نهج البلاغة ، ج 2 ، ص 297 ، باب 37 .

([109]) نهج البلاغة ، الخطبة رقم 122 .

([110]) نهج البلاغة ، الخطبة رقم 182 .

([111]) نهج البلاغة ، الخطبة رقم 16 .

([112]) نهج البلاغة ، رسائل الامام ، رسالة رقم 41 .

([113]) نهج البلاغة ، الخطبة رقم 2 .

([114]) نهج البلاغة ، الخطبة رقم 97 .

([115]) نهج البلاغة ، الخطبة رقم 100 .

([116]) نهج البلاغة ، الخطبة رقم 87 .

([117]) العصمة : محاضرات السيّد كمال الحيدري ، بقلم محمّد القاضي ، ص 199 - 228 .

([118]) آية التطهير في أحاديث الفريقين ، ج 2 ، ص 159 - 312 .

([119]) صحيح مسلم ، ج 7 ، ص 130 ; مستدرك الحاكم ، ج 3 ، ص 147 ; سنن البيهقي ، ج 2 ، ص 149 ; تفسير الطبري ، ج 22 ، ص 5 ; الدرّ المنثور ، ج 5 ، ص 198 ; تفسير ابن كثير ، ج 3 ، ص 485 .

([120]) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، ج 22 ، ص 14 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

([121]) التفسير الكبير ، ج 27 ، ص 166 .

([122]) الاصول العامّة للفقه المقارن ، ص 156 .

([123]) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، دار الفكر، ج 6 ، ص 606 .

([124]) آل عمران: 61.

([125]) الاصول العامّة للفقه المقارن ، ص 181 .

([126]) نهج البلاغة ، الخطبة رقم 109 .

([127]) نهج البلاغة ، الخطبة رقم 144 .

([128]) آل عمران: 106.

([129]) كشف الغمّة ، ج 2 ، ص 99 .

([130]) الاصول من الكافي ، ج 1 ، ص 203 ، باب نادر وجامع في فضل الامام وصفاته ، ح 2 .

([131]) الاصول من الكافي ، ج 1 ، ص 200 ، ح 1 .

([132]) الاصول العامّة للفقه المقارن ، ص 182 .

المحور الرابع

المهدي ، هل هو حي ، أم سيولد بعد ذلك ؟

تعتبر مسألة الامام المهدي (عجّل الله فرجه) من المسائل الاساسيّة في بحث الامامة الخاصّة ، من هنا ورد التركيز عليها في التراث الشيعي ، بما يناسب موقعها المهم هذا .

كما إنّ فكرة مجيء المصلح في آخر الزمان ، فكرة لا خلاف عليها بين علماء المسلمين عامّة ، حيث اتفقت كلمتهم إلاّ من شذّ منهم ، على أنّه لابدّ أن يأتي في آخر الزمان من يصلح الارض ، ويملاها قسطاً وعدلاً ، بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً .

وممن صرّح بأحاديث المهدي ، الترمذي في السنن ، والنيسابوري في المستدرك ، والبغوي في مصابيح السنّة ، وابن الاثير في النهاية ، وابن تيميّة في منهاج السنّة ، والذهبي في تلخيص المستدرك ، والتفتازاني في شرح المقاصد ، والهيثمي في مجمع الزوائد ، والجزري الدمشقي في أسنى المطالب ، والصبّان في إسعاف الراغبين ، والشوكاني وعشرات غيرهم([133]) .

وصحح النيسابوري كثيراً من روايات المهدي ، وعبّر عن طائفة منها بأنّها صحيحة على شرط الشيخين ولم يخرّجاه ، كحديث أم سلمة حول خسف البيداء الذي يكون في زمن المهدي([134]) ، وحديث ابن مسعود « لا تذهب الدنيا حتّى يملك العرب رجل من أهل بيتي ، يواطئ اسمه اسمي »([135]) ، وحديث ثوبان حول الرايات التي توطّئ للمهدي سلطانه([136]) ، وحديث أبي سعيد : « المهدي منّي أجلى الجبهة »([137]) ، وحديث أبي سعيد أيضاً : « لا تقوم الساعة حتّى تُملا الارض ظلماً وجوراً وعدواناً ، ثمّ يخرج من أهل بيتي من يملاها قسطاً وعدلاً »([138]) ، وحديث محمّد ابن الحنفيّة عن أبيه علي (عليه السلام) أنّه قال ، وقد سأله رجل عن المهدي : « ذاك يخرج في آخر الزمان »([139]) .

وعبّر عن طائفة ثانية منها ، بأنّها صحيحة على شرط مسلم ولم يخرّجه ، كحديث أبي سعيد الخدري : « المهدي منّا أهل البيت »([140]) ، وحديثه الآخر أيضاً : « تملا الارض جوراً وظلماً فيخرج رجل من عترتي »([141]) .

وعبّر عن طائفة ثالثة بأنّها صحيحة الاسناد ولم يخرّجاه ، كحديث أبي سعيد : « ينزل بأُمّتي في آخر الزمان بلاء شديد ، فيبعث الله عزّ وجلّ من عترتي ، فيملا الارض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً »([142]) ، وحديث أبي سعيد أيضاً : « يخرج في آخر أمّتي المهدي »([143]) .

بل صرّح بعض الاعلام بتواتر هذه الاحاديث ، كالابري في مناقب الشافعي ، كما نقل ذلك المزّي في تهذيبه([144]) ، والقرطبي في التذكرة([145]) ، والعسقلاني في تهذيب التهذيب([146]) ، والسخاوي في فتح المغيث ، والسيوطي في مصباح الزجاجة ، والمتقي الهندي في البرهان في علامات مهدي آخر الزمان ، والبرزنجي في الاشاعة لاشراط الساعة ، وعشرات غير هؤلاء لا مجال لذكرهم في هذه العجالة([147]) .

فمثلاً ، قال ابن حجر في تهذيب التهذيب ، نقلاً عن الابري في ترجمة محمّد بن خالد الجندي : «وقد تواترت الاخبار ، واستفاضت بكثرة رواتها ، عن المصطفى (صلى الله عليه وآله) في المهدي ، وأنّه من أهل بيته ، وأنّه يملك سبع

سنين ، ويملا الارض عدلاً ، وأنّ عيسى (عليه السلام) يخرج فيساعده على قتل الدجّال ، وأنّه يؤمّ هذه الامّة ، وعيسى خلفه»([148]) .

وقال أيضاً : «وفي صلاة عيسى (عليه السلام) خلف رجل من هذه الامّة ، مع كونه في آخر الزمان ، وقرب قيام الساعة ، دلالة للصحيح من الاقوال (أنّ الارض لا تخلو من قائم لله بحجّة) والله العالم»([149]) .

ولم يقتصر الامر على المتقدّمين من علماء المسلمين ، بل نجد ذلك واضحاً في كتابات المتأخّرين أيضاً ، حيث صرّح أهل التحقيق منهم ، بصحّة أحاديث المهدي ، بل بتواترها ، كالشيخ محمّد الخضر المصري ، والشيخ محمّد فؤاد عبدالباقي ، وأبو الاعلى المودودي ، وناصر الدين الالباني ، والشيخ حمود التويجري ، والشيخ عبدالعزيز بن باز ، وغيرهم([150]) .

وقال الشيخ منصور علي ناصف في كتابه (التاج الجامع للاصول) : «اشتهر بين العلماء سلفاً وخلفاً ، أنّه في آخر الزمان ، لابدّ من ظهور رجل من أهل البيت ، يسمّى المهدي ، يستولي على الممالك الاسلاميّة ، ويتبعه المسلمون ، ويعدل بينهم ، ويؤيّد الدين ، وبعده يظهر الدجّال ، وينزل عيسى (عليه السلام) فيقتله ، أو يتعاون عيسى مع المهدي على قتله .

وقد روى أحاديث المهدي ، جماعة من خيار الصحابة ، وخرّجها أكابر المحدّثين ، كأبي داود والترمذي ، وابن ماجة ...، ولقد أخطأ من ضعّف أحاديث المهدي كلّها ، كابن خلدون وغيره»([151]) .

وقال ابن باز : «فأمر المهدي معلوم ، والاحاديث فيه مستفيضة ، بل متواترة متعاضدة ، وقد حكى غير واحد من أهل العلم تواترها ...

وهي متواترة تواتراً معنويّاً ، لكثرة طرقها واختلاف مخارجها ، وصحابتها ، ورواتها ، وألفاظها ، فهي تدل على أنّ هذا الشخص الموعود به ، أمره حقّ ثابت وخروجه حق»([152]) .

وقال أيضاً : «ولقد تأمّلت ما ورد في هذا الباب من أحاديث ، فاتضح لي صحّة كثير منها ، كما بيّن ذلك العلماء الموثوق بعلمهم ودرايتهم ، كأبي داود ، والترمذي ، والخطّابي ، ومحمّد بن الحسين الآبري ، وشيخ الاسلام ابن تيميّة ، والعلاّمة ابن القيّم ، والشوكاني وغيرهم»([153]) .

وقد ورد في معجم أحاديث الامام المهدي ما يقرب من (2000 رواية) عن رسول الله وأهل بيته تعرّضت لمختلف شؤون المهدي ، كالابحاث المتعلّقة بمرحلة ما قبل ظهور المهدي (عجّل الله فرجه) ، ثمّ ما يتعلّق بشخصيّته ، وحركة ظهوره ، وأحداثها ، ثمّ ما يكون بعده([154]) .

إذن ، فمسألة ظهور المهدي في آخر الزمان ، وأنّه من أهل بيته (صلى الله عليه وآله) وعترته ، وأنّه يملا الارض قسطاً وعدلاً ، ممّا لا ريب فيها ، ولا مجال للتشكيك والتردّد إزاءها ، وبتعبير الشيخ محمود التويجري : (أنّه لا ينكر خروجه إلاّ جاهل أو مكابر)([155]) .

ولقد أجاد بعض الكتّاب المعاصرين حيث قال : «إنّ في عالم الدجل ، الكثير من الذين يدّعون العلم ويتاجرون بالورع ، يريدون أن يجعلون تراثنا خالياً من الهواء ...، لقد رفض فكرة المهدي رجال هناك ، أمثال (غولد سابهر) و(فلهوزن) فاتبعهم رجال هنا ، من منطلق أنّهم يأكلون كلّ طعام يأتي من هناك»([156]) .

نعم ، الذي وقع الخلاف فيه بين علماء المسلمين ، إنّما هو في جهة أخرى من البحث ، هي : هل المهدي حي ؟ ولكنّه غائب مستور ، كما ذهب إلى ذلك أتباع مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) تبعاً للروايات الصحيحة الواردة عن النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) وأئمّة أهل البيت (عليهم السلام) ، أمّ سيولد بعد ذلك ؟ كما هو الاتجاه العام عند مدرسة الخلفاء .

من هنا لابدّ أن ينصبّ الحديث على إثبات أنّ المهدي المنتظر حي أم لا ؟ ويمكن ذكر طريقين في هذه العجالة لاثبات حياته :

الطريق الاوّل : وهو الطريق غير المباشر ، إن صحّ التعبير ، وذلك بأن يقال : بعد أن ثبتت ضرورة استمرار وجود معصوم ، لا يفارق الكتاب ولا يفارقه الكتاب ، كما هو نص حديث الثقلين ، وأنّ هؤلاء المعصومين لا يتجاوز عددهم (12) كما هو مقتضى أحاديث (خلفائي من بعدي اثنا عشر) ، وأنّ هؤلاء هم علي والحسن والحسين وتسعة من صلب الحسين (عليهم السلام) ينتهون بالمهدي المنتظر ، كما هو نص عشرات الروايات من الفريقين ، إذن يثبت بالدلالة الالتزاميّة العقليّة ، أنّ الامام الثاني عشر ، حيٌّ يُرزق ، لكنّه غائب مستور عن الخلق لحكمة إلهيّة في ذلك .

ومن الواضح أنّ هذا الطريق يثبت لنا وجود إمام معصوم غائب ، هو المهدي المنتظر ابن الامام الحسن العسكري (عليه السلام) الذي ينتهي نسبه إلى الامام الحسين بن علي (عليهما السلام) .

ولكنّه لا يتعرّض لتفاصيل سنة ولادته ، وكيفيّة ذلك ، ومن هي أمّه ، ومتى غاب ، وهل له غيبة واحدة أم أكثر .

إلاّ أنّ هذا لا يؤثّر في أصل فكرة إثبات وجوده ، وأنّه حيٌّ غائب ، لانّ الضرورة النقليّة وما يلزمها عقلاً تثبت هذه الحقيقة .

وهنا أود الاشارة إلى أن دعوى ضرورة وجود معصوم بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) بل عدم خلو كل زمان من معصوم ، ليست من مختصات مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) كما يتهم بعضٌ الشيعة الامامية بذلك ، بل هناك جملة من أعلام المسلمين ، ذهبوا الى ضرورة وجود معصوم في كل زمان .

قال الفخر الرازي في تفسيره ، ذيل قوله تعالى (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّدِقِينَ) التوبة : 119 : « إنه تعالى أمر المؤمنين بالكون مع الصادقين .

ومتى وجب الكون مع الصادقين ، فلا بد من وجود الصادقين في كل وقت .

فإن قيل : لِم لا يجوز أن يقال : إن المراد بقوله : (وَ كُونُوا مَعَ الصَّدِقِينَ) أي كونوا على طريقة الصادقين ، كما أن الرجل إذا قال لولده : كن معه الصالحين ، لا يفيد إلا ذلك .

سلمنا ذلك ، لكن نقول : إن هذا الامر كان موجوداً في زمان الرسول فقط ، فكان هذا أمراً بالكون مع الرسول ، فلا يدل على وجود صادق في سائر الازمنة .

والجواب عن الاول : إن قوله (وَ كُونُوا مَعَ الصَّدِقِينَ) أمر بموافقه الصادقين ، ونهي عن مفارقتهم ، وذلك مشروط بوجود الصادقين .

وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

فدلّت هذه الآية على وجود الصادقين .

وقوله : إنه محمول على أن يكونوا على طريقة الصادقين ، فنقول : إنه عدول عن الظاهر من غير دليل .

قوله : هذا الامر مختص بزمان رسول الله عليه الصلاة والسلام :

قلنا : هذا باطل لوجوه :

الاول : أنه ثبت بالتواتر الظاهر من دين محمد (عليه الصلاة والسلام) أن التكاليف المذكورة في القرآن متوجهه إلى المكلفين إلى قيام القيامة ، فكان الامر في هذا التكليف كذلك .

والثاني : أن الصيغة تتناول الاوقات كلها بدليل صحة الاستثناء .

والثالث : لما لم يكن الوقت المعيَّن مذكوراً في لفظ الآية ، لم يكن حمل الآية على البعض أولى من حمله على الباقي ، فإما أن لا يحمل على شيء من الاوقات ، فيفضي الى التعطيل وهو باطل ، أو على الكلّ وهو المطلوب .

والرابع : وهو أن قوله (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ) أمر لهم بالتقوى ، وهذا الامر إنما يتناول من يصحّ منه أن لا يكون متقياً ، وإنما يكون كذلك لو كان جائز الخطأ فكانت الآية دالة على أنّ من كان جائز الخطأ ، وجب كونه مقتدياً بمن كان واجب العصمة ، وهم الذين حكم الله بكونهم صادقين .

فهذا يدلّ على أنه واجب على جائز الخطأ ، كونه مع المعصوم عن الخطأ ، حتى يكون المعصوم عن الخطأ مانعاً لجائز الخطأ عن الخطأ .

وهذا المعنى قائم في جميع الازمان ، فوجب حصوله في كل الازمان »([157]) .

وقال أيضاً في ذيل قوله تعالى (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنكُمْ) النساء : 59 : « إن الله تعالى أمر بطاعة أولي الامر على سبيل الجزم في هذه الآية ، ومَن أمَر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع ، لا بد أن يكون معصوماً عن الخطأ ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ ، كان بتقدير إقدامه على الخطأ ، يكون قد أمر الله بمتابعته ، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ .

والخطأ لكونه خطأ منهيٌ عنه ، فهذا يفضي الى اجتماع الامر والنهي في الفعل الواحد ، بالاعتبار الواحد ، وإنه محال .

فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الامر علي سبيل الجزم ، وثبت أن كل من أمَر الله بطاعته على سبيل الجزم ، وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ .

فثبت قطعاً أن أولي الامر المذكور في هذه الآية لا بد وأن يكون معصوماً »([158]) .

نعم وقع الاختلاف في مصداق المعصوم وأنه مَن هو ؟ حيث ذهب أتباع أهل البيت ، تبعاً للآيات والروايات المتواترة ، كما تقدمت الاشارة إليها ، أن المقصود به هم أئمة أهل البيت (عليهم السلام) .

عن عبد الله بن عباس قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول : « أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين ، مطهّرون معصومون »([159]) .

وذهب أتباع الخلفاء إلى أن المعصوم هو « إجماع الامة » .

قال الرازي : « لِم لا يجوز أن يكون الصادق هو المعصوم الذي يمتنع خلو زمان التكليف عنه ، كما تقوله الشيعة .

قلنا : نحن نعترف بأنه لابد من معصوم في كل زمان ، إلا أنا نقول : ذلك المعصوم هو مجموع الامة»([160]) .

ثم قال : « ولا معنى لقولنا الاجماع حجة إلا ذلك »([161]) .

وقد أوضح مراده من الاجماع بقوله : « مذهبنا أن الاجماع لا ينعقد إلا بقول العلماء الذين يمكنهم استنباط أحكام الله من نصوص الكتاب والسنة ، وهؤلاء هم المسمون بأهل الحل والعقد في كتب أصول الفقه »([162]) .

وتبعه في ذلك محمد عبده في تفسير المنار ، جيث قال محمد رشيد رضا إن أستاذه « فكّر في هذه المسألة من زمن بعيد ، فانتهى به الفكر إلى أن المراد بأولي الامر ، جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين ...

فأهل الحل والعقد من المؤمنين ، إذا أجمعوا على أمر من مصالح الامة ، ليس فيه نص عن الشارع ، مختارين في ذلك غير مكرهين عليه بقوة أحد ولا نفوذه ، فطاعتهم واجبة ، ويصح أن يقال هم معصومون في هذا الاجماع ، ولذلك أطلق الامر بطاعتهم ، بلا شرط مع اعتبار الوصف والاتباع المفهوم من الآية »([163]) .

الطريق الثاني : وهو الطريق المباشر ، ولكي يتضح ذلك جيّداً لابدّ من الاشارة إلى التسلسل الوارد في الروايات ، لاثبات هذه الظاهرة الالهيّة ، وهذا ما أحصاه بعض المحقّقين المعاصرين :

1 ـ الروايات التي تبشّر بظهوره (عجّل الله فرجه) : 657 رواية

2 ـ الروايات التي تبيّن أنّه يملا الارض عدلاً وقسطاً : 123 رواية

3 ـ الروايات التي تثبّت أنّ المهدي المنتظر من أهل البيت : 389 رواية

4 ـ الروايات التي تبيّن أنّه من ولد أمير المؤمنين (عليه السلام) : 214 رواية

5 ـ الروايات التي تثبّت أنّه من ولد فاطمة الزهراء (عليهما السلام) : 192 رواية

6 ـ الروايات التي تقول إنّه من ولد الامام الحسين (عليه السلام) : 185 رواية

7 ـ الروايات التي تقول إنه التاسع من ولد الامام الحسين (عليه السلام) : 148 رواية

8 ـ الروايات التي تقول إنه من ولد علي بن الحسين (عليهما السلام) : 185 رواية

9 ـ الروايات التي تقول إنه من ولد محمّد الباقر (عليه السلام) : 103 رواية

10 ـ الروايات التي تقول إنه من ولد الصادق (عليه السلام) : 103 رواية

11 ـ الروايات التي تقول إنه السادس من ولد الصادق (عليه السلام) : 99 رواية

12 ـ الروايات التي تقول إنه من ولد موسى بن جعفر (عليهما السلام) : 101 رواية

13 ـ الروايات التي تقول إنه الخامس من ولد موسى بن جعفر (عليهما السلام) : 98 رواية

14 ـ الروايات التي تقول إنه الرابع من ولد علي بن موسى الرضا (عليه السلام) : 95 رواية

15 ـ الروايات التي تقول إنه الثالث من ولد محمّد بن علي التقي (عليه السلام) : 90 رواية

16 ـ الروايات التي تقول إنه من ولد علي الهادي (عليه السلام) : 90 رواية

17 ـ الروايات التي تقول إنه ابن أبي محمّد الحسن العسكري (عليه السلام) : 146 رواية

18 ـ الروايات التي تقول إنه الثاني عشر من الائمّة وخاتمهم: 136 رواية

19 ـ في ولادته (عليه السلام) وتأريخها وبعض حالات أمّه: 214 رواية

20 ـ في أنّ له غيبتين : 10 روايات

21 ـ في أنّ له غيبة طويلة : 91 رواية

22 ـ في أنّه طويل العمر جدّاً : 318 رواية([164])

ولا شكّ أنّ روايات بعض هذه العناوين ، قد تتداخل مع بعضها الآخر ، كما هو واضح .

لا يقال : بأنّ الاستدلال بروايات أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) لاثبات إمامة أنفسهم وبيان خصائصها ، وعدد الائمّة ، وأنّ الثاني عشر حيّ ، ونحو ذلك ، إنّما يلزم منه الدور ، لانّ حجيّة أقوالهم موقوفة على إمامتهم وعصمتهم ، والمفروض أنّ إمامتهم متوقّفة على حجيّة أقوالهم .

لانّه يقال : إنّ هذا الاشكال مدفوع ببيانين :

الاوّل : أننا بعد أن أثبتنا عصمتهم بإحدى الطرق المتقدّمة في المحور الثالث ، يمكن الاحتجاج والاستناد إلى أقوالهم لاثبات خصائص إمامة المهدي المنتظر (عجّل الله فرجه) ، ولا يلزم محذور في المقام ، لاختلاف الموقوف عن الموقوف عليه ، فيرتفع الدور .

الثاني : أنّه حتّى لو لم تثبت عصمة أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) في الرتبة السابقة ، إلاّ أنّه يمكن الاعتماد على رواياتهم ، وذلك من خلال أنّهم رواة ثقات عن الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) ، فتكون حجيّة قولهم على حدّ حجيّة قول أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذين قبل المسلمون عامّة ، الاعتماد على ما ينقلونه عن النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) ، ولا أظن أنّ أحداً من المسلمين يتوقّف في قبول مثل هذا الامر بشأن أهل البيت (عليهم السلام) سواء فيما صرّحوا فيه من الروايات ، بأنّهم ينقلونه عن الرسول الاكرم (صلى الله عليه وآله) ، أو التي لم يصرّحوا فيها بذلك ، بل اكتفوا بالقاعدة الكليّة التي بيّنوا فيها ، أنّ حديثهم هو حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، كما يقول الامام الصادق (عليه السلام) : « حديثي حديث أبي ، وحديث أبي حديث جدّي ، وحديث جدّي حديث الحسين ، وحديث الحسين حديث الحسن ، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين ، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله »([165]) .

وعلى هذا ، لم نجد أحداً من المسلمين ، شكك فيما نقل الامام الباقر أو الامام الصادق (عليهما السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع علمنا أنّ كثيراً من هؤلاء الذين سمعوا هذه الاحاديث من الائمّة (عليهم السلام) وقبلوها ، ورووها ، لم يكونوا يعتقدون بعصمة الائمّة (عليهم السلام) كاعتقاد الشيعة بهم ، غير أنّهم كانوا يعتقدون بأنّ هؤلاء في أعلى درجات التقى والعلم والوثاقة والصدق .

ولا يخفى أنّ هناك طرقاً أخرى لاثبات حياته (عجّل الله فرجه) كشهادة من رآه ، وهم جمٌّ غفير ، وفيهم الثقات والعلماء ، فقد أحصى البعض (عدد مَنْ شاهد الامام المهدي ، فبلغوا زهاء 304 شخص»([166]) .

ولعلّ ما فاته أكثر ممّا ذكره .

من هنا جاءت اعترافات عدد كبير من علماء السنّة ، تبيّن ولادة المهدي (عجّل الله فرجه) ، وقد صرّح بعضهم ، أنّه هو الامام الموعود بظهوره في آخر الزمان.

وقد أحصى الشيخ مهدي فقيه إيماني في كتابه (المهدي في نهج البلاغة) ما يزيد عن (100) شخصيّة ، صرّحت بولادته (عجّل الله فرجه) .

وكنموذج على ذلك ، ما ذكره العلاّمة الشعراني الحنفي في كتابه القيّم (اليواقيت والجواهر) حيث قال : « فهناك يترقّب خروج المهدي (عليه السلام) وهو من أولاد الامام الحسن العسكري ، ومولده (عليه السلام) ليلة النصف من شعبان سنة خمسة وخمسين ومائتين ، وهو باق إلى أن يجتمع بعيسى بن مريم (عليه السلام) ـ إلى أن يقول ـ وعبارة الشيخ محي الدين في الباب السادس والستين وثلثمائة من (الفتوحات) : واعلموا أنّه لابدّ من خروج المهدي (عليه السلام) ، لكن لا يخرج حتّى تمتلئ الارض جوراً وظلماً ، فيملاها قسطاً وعدلاً ، ولو لم يكن من الدنيا إلاّ يوم واحد ، طوّل الله تعالى ذلك اليوم ، حتّى يلي ذلك الخليفة ، وهو من عترة رسول الله (صلى الله عليه وآله) من ولد فاطمة (رضي الله عنها) جدّه الحسين بن علي بن أبي طالب ، ووالده الحسن العسكري ، ابن الامام علي النقي بالنون ، ابن الامام محمّد التقي بالتاء ، ابن الامام علي الرضا ، ابن الامام موسى الكاظم ، ابن الامام جعفر الصادق ، ابن الامام محمّد الباقر ، ابن الامام زين العابدين علي ، ابن الامام الحسين ، ابن الامام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، اسمه اسم رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، يبايعه المسلمون بين الركن والمقام ...»([167]) .

كانت هذه عبارة صاحب الفتوحات المكيّة ، كما ينقلها أحد أعلام القرن العاشر الهجري ، ولكن ممّا يؤسف له ، أنّ الايادي غير الامينة عبثت بهذا النص ، عندما طبعت الفتوحات ، فجاء النص بنحو آخر : « اعلم أيّدنا الله ، أنّ لله خليفة يخرج وقد امتلات الارض ظلماً وجوراً ، فيملاها قسطاً وعدلاً ، لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد ، طوّل الله ذلك اليوم حتّى يلي هذا الخليفة من عترة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، من ولد فاطمة ، يواطئ اسمه اسم رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، جدّه الحسن بن علي بن أبي طالب ، يبايع بين الركن والمقام ... »([168]) .

وبهذا تخرج مسألة الايمان بالمهدي المنتظر (عجّل الله فرجه) ، وأنّه حيٌّ يُرزق ، عن دائرة اتهام الشيعة باختلاقها وإيجادها في الفكر الاسلامي .

ختامه مسك

وفي ختام هذه الدراسة ، لابأس بالاشارة إلى نماذج من الروايات التي وردت في مسألة الامام المهدي المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الشريف):

1 ـ عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال : « لما عرج بي إلى السماء السابعة ، ومنها إلى سدرة المنتهى ، ومن السدرة إلى حجب النور ، ناداني ربي جلّ جلاله : يا محمد أنت عبدي وأنا ربك ، فلي فاخضع ، وإياي فاعبد ، وعليَّ فتوكّل ، وبي فثق ، فإني قد رضيت بك عبداً وحبيباً ورسولاً ونبياً ، وبأخيك عليّ خليفة وباباً ، فهو حجتي على عبادي ، وإمام لخلقي ، به يُعرف أوليائي من أعدائي ، وبه يُميز حزب الشيطان من حزبي وبه يقام ديني وتحفظ حدودي ، وتنفذ أحكامي ، وبك وبه وبالائمة من ولده أرحم عبادي وإمائي .

وبالقائم منكم أعمّر أرضي بتسبيحي وتقديسي وتهليلي وتكبيري وتمجيدي ، وبه أطهّر الارض من أعدائي ، وأورثها أوليائي ، وبه أجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمتي العليا ، وبه أحيي عبادي وبلادي بعلمي ، وله أُظهر الكنوز والخزائن والذخائر بمشيتي ، وإياه أظهر على الاسرار والضمائر بإرادتي ، وأمدّه بملائكتي ، لتؤيده على إنفاذ أمري وإعلان ديني ، ذلك وليّي حقاً ، ومهديّ عبادي صدقاً »([169]) .

2 ـ وعنه أيضا (صلى الله عليه وآله) : « القائم من ولدي ، اسمه اسمي ، وكنيته كنيتي ، وشمائله شمائلي ، وسنّته سنتي ، يقيم الناس على ملتي وشريعتي ، ويدعوهم إلى كتاب الله عز وجل ، من أطاعه فقد أطاعني ، ومن عصاه فقد عصاني ، ومن أنكره في غيبته فقد أنكرني ، ومن كذّبه فقد كذبني ، ومن صدّقه فقد صدّقني ، إلى الله أشكو المكذّبين لي في أمره ، والجاحدين لقولي في شأنه ، والمضلين لامتي عن طريقته .

وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »([170]) .

3 ـ وعن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) قال للحسين (عليه السلام) : « التاسع من ولدك هو القائم بالحق ، المظهر للدين ، والباسط للعدل ».

قال الحسين (عليه السلام) : يا أمير المؤمنين ، وإن ذلك لكائن ؟

فقال علي (عليه السلام) : إي والذي بعث محمداً بالنبوة ، واصطفاه على جميع البرية ، ولكن بعد غيبة وحيرة ، لا يثبت فيها على دينه إلا المخلصون ، المباشرون لروح اليقين ، الذين أخذ الله عز وجل ميثاقهم بولايتنا ، وكتب في قلوبهم الايمان ، وأيدهم بروح منه »([171]) .

4 ـ عن الامام الصادق (عليه السلام) قال : «القائم هو الخامس من ولد ابني موسى .

ذلك ابن سيدة الاماء ، يغيب غيبة يرتاب فيها المبطلون ، ثم يظهره الله عز وجل ، فيفتح الله على يديه مشارق الارض ومغاربها ، وينزل روح القدس عيسى ابن مريم (عليه السلام) فيصلّي خلفه ، وتشرق الارض بنورها ، ولا تبقى في الارض بقعة عبد فيها غير الله ، إلا عُبد الله فيها ، ويكون الدين كله لله ، ولو كره المشركون »([172]) .

5 ـ وعن الامام الجواد (عليه السلام) : «إن القائم منّا هو المهدي الذي يجب أن ينتظر في غيبته ، ويطاع في ظهوره ، وهو الثالث من ولدي ، والذي بعث محمداً (صلّى الله عليه وآله) بالنبوة وخصّنا بالامامة ، إنه لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم ، حتى يخرج فيملا الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، وإن الله تبارك وتعالى يصلح أمره في ليلة ، كما أصلح أمر كليمه موسى (عليه السلام) إذ ذهب ليقتبس لاهله ناراً ، فرجع وهو رسول نبي »([173]) .

6 ـ وعن النبي (صلى الله عليه وآله) : « أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من الله عز وجل »([174]) .

7 ـ وعن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « انتظرو الفرج ، ولا تيأسوا من روح الله ، فإن أحب الاعمال إلى الله عز وجل انتظار الفرج »([175]) .

8 ـ وعن الامام السجاد (عليه السلام) : « تمتد الغيبة بولي الله الثاني عشر من أوصياء رسول الله (صلى الله عليه وآله) والائمة بعده ، إن أهل زمان غيبته القائلون بإمامته ، المنتظرون لظهوره ، أفضل أهل كل زمان ، لان الله (تعالى ذكره) أعطاهم من العقول والافهام والمعرفة ، ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة ، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالسيف ، أولئك المخلصون حقاً ، وشيعتنا صدقاً ، والدعاة إلى دين الله سراً وجهراً »([176]) .

9 ـ وعن الامام السجاد (عليه السلام) أيضاً : « طوبى لشيعتنا المتمسكين بحبلنا في غيبة قائمنا ، الثابتين على موالاتنا والبراءة من أعدائنا ، أولئك منا ونحن منهم ، قد رضوا بنا أئمة ، ورضينا بهم شيعة ، فطوبى لهم ، ثم طوبى

لهم ، هم والله معنا في درجتنا يوم القيامة »([177]) .

10 - عن أبي بصير ، قال : سمعت أبا جعفر محمد بن علي (عليه السلام) يقول : «والله لتميّزن ، والله لتمحّصن ، والله لتغربلن ، كما يغربل الزؤان من القمح »([178]) .

11 - عن الامام الرضا (عليه السلام) : « والله لا يكون ما تمدّون إليه أعينكم ، حتى تمحّصوا وتميّزوا ، وحتى لا يبقى منكم إلا الاندر الاندر »([179]) .

من هنا كان الثابتون على القول به في زمان غيبته أعزّ من الكبريت الاحمر ، كما قال خاتم الانبياء والمرسلين([180]).

وبإضافة هذا المحور إلى المحاور الثلاثة المتقدّمة ، ونعني بها : استمرار الامامة ، وعدد الائمّة ، ومصاديقهم ، يتم بحث الامامة بشكل منطقي ، وننتهي من خلاله إلى نتائج قطعيّة لا ينكرها أي عالم باحث عن الحق والحقيقة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

الهوامش

([133]) سنن الترمذي ، ج 4 ، ص 505 ; مستدرك الحاكم ، ج 4 ، ص 553 ; مصابيح السنّة ، ص 488 ، ح4199 ; النهاية في غريب الحديث والاثر ، ج 5 ، ص 254 ; منهاج السنّة ، ج 4 ، ص 211 ; تلخيص المستدرك ، ج 4 ، ص 553 ; شرح المقاصد ، ج 5 ، ص 312 ; مجمع الزوائد ، ج 7 ، ص 313 - 314 ; أسنى المناقب في تهذيب أسنى المناقب ، ص 163 - 168 ; إسعاف الراغبين ، ص 145 ; الاذاعة ، ص 125 .

([134]) مستدرك الحاكم ، ج 4 ، ص 429 .

([135]) مستدرك الحاكم ، ج 4 ، ص 442 .

([136]) مستدرك الحاكم ، ج 4 ، ص 464 .

([137]) مستدرك الحاكم ، ج 4 ، ص 457 .

([138]) مستدرك الحاكم ، ج 4 ، ص 557 .

([139]) مستدرك الحاكم ، ج 4 ، ص 554 .

([140]) مستدرك الحاكم ، ج 4 ، ص 557 .

([141]) مستدرك الحاكم ، ج 4 ، ص 558 .

([142]) مستدرك الحاكم ، ج 4 ، ص 465 .

([143]) مستدرك الحاكم ، ج 4 ، ص 558 .

([144]) تهذيب الكمال ، ج 25 ، ص 146 / 5181 ، في ترجمة محمّد بن خالد الجندي .

([145]) التذكرة ، ص 701 .

([146]) تهذيب التهذيب ، ج 9 ، ص 125/ 201 ، في ترجمة محمّد بن خالد الجندي .

([147]) نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني ، ص 144 ; العطر الوردي لشرح القطر الشهدي للبلبيسي ، ص

. 45

([148]) تهذيب التهذيب ، ج 9 ، ص 125/ 201 ، ترجمة محمّد بن خالد الجندي .

([149]) فتح الباري ، ج 6 ، ص 385 .

([150]) نظرة في أحاديث المهدي ، ص 829 ـ مقال نشرته مجلّة التمدّن الاسلامي ، دمشق 1370 هـ ـ 1950م ; محاضرة نشرت في مجلّة الجامعة الاسلاميّة للشيخ محمّد فؤاد عبدالباقي ، العدد الثالث ، السنة الاولى ، 1388 هـ السعوديّة ; البيانات للمودودي ، ص 116 ; حول المهدي ـ مقال ـ 644 ، نشرته مجلّة التمدّن الاسلامي 1371 هـ ـ دمشق ; الاحتجاج بالاثر على من أنكر المهدي المنتظر ، ص 70 ـ 71 ; الاحتجاج بالاثر للتويجري : كلمة التصدير ، بقلم ابن باز ، ص 3 .

([151]) التاج الجامع للاصول ، ج 5 ، ص 341 .

([152]) كلمة ابن باز في آخر محاضرة : عقيدة أهل السنّة والاثر ، مجلّة الجامعة الاسلاميّة ، المدينة المنوّرة1388 .

([153]) الاحتجاج بالاثر للتويجري ، كلمة التصدير لابن باز ، ص 3 .

([154]) معجم أحاديث الامام المهدي ، ج 1 ، ص 11 ، تأليف ونشر مؤسسة المعارف الاسلاميّة .

([155]) الاحتجاج بالاثر ، ص 127 .

([156]) عقيدة المسيح الدجّال في الاديان ، قراءة في المستقبل ، تأليف سعيد أيّوب ، دار البيان للطباعة والنشر ، ص 361 .

([157]) التفسير الكبير ، للامام الفخر الرازي ، ج 16 ، ص 220 .

([158]) المصدر السابق ، ج 10 ، ص 144 .

([159]) إعلام الورى ، ص 375 .

([160]) التفسير الكبير ، ج 16 ، ص 220 ـ 221 .

([161]) المصدر السابق .

([162]) المصدر السابق ، ج 10 ، ص 150 .

([163]) تفسير القرآن الكريم ، الشهير بتفسير المنار ، للامام محمد رشيد رضا ، ج 5 ، ص 181 ، دار الفكر .

([164]) منتخب الاثر ، للصافي الكلبايكاني .

([165]) وسائل الشيعة ، ج 27 ، ص 83 ، باب 8 ; الكافي ، ج 1 ، ص 53 .

([166]) من هو المهدي ، أبو طالب التجليلي التبريزي ، ص 460 ـ 505 ، نقلاً عن كتاب دفاع عن الكافي ، تأليف ثامر هاشم حبيب العميدي ، ج 1 ، ص562 .

([167]) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الاكابر ، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التأريخ العربي ، بيروت ـ لبنان ، ج 2 ، ص 562.

([168]) الفتوحات المكيّة ، دار إحياء التراث العربي ، ج 3 ، ص 327 .

([169]) أمالي الصدوق ، الباب 92 ، الحديث 4 .

([170]) إكمال الدين ، الباب 39 ، الحديث 6 .

([171]) المصدر السابق ، الباب 26 ، الحديث 16 .

([172]) المصدر السابق ، الباب 33 ، الحديث 31 .

([173]) المصدر السابق ، الباب 36 ، الحديث 1 .

([174]) نوادر الاخبار ، ص 249 ، الحديث 1 .

([175]) المصدر السابق ، ص 249 ، الحديث 3 .

([176]) الاحتجاج ، تأليف : أبي المنصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي ، ج 2 ، ص 50 ; إكمال الدين ، الباب (3) الحديث 3 ; تفسير العياشي ، ج 2 ، ص 138 ، الحديث 50 .

([177]) إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات ، ج 3 ، ص 477 ، الباب 22 الحديث 168 ، نقلاً عن نوادر الاخبار ، للفيض الكاشاني ، ص 250 ، الحديث 8 .

([178]) كتاب الغيبة ، لمؤلفه الشيخ الاجل محمد بن إبراهيم النعماني ، ص 205 ، الباب 12 ، الحديث 8. الزؤان : هو ما ينبت غالباً بين الحنطة ، وحبه يشبه حبها إلا أنه أصغر . والقمح : البُر وهو حب معروف يطحن ويتخذ منه الخبز .

([179]) المصدر السابق ، ص 208 ، الباب 12 ، الحديث 16 .

([180]) نوادر الاخبار ، ص 226 ، باب غيبته ، الحديث 3 .